كاتو الأكبر عن الشيخوخة

تأليف ماركوس تولّيوس شيشرون

ترجمة

أ. د. علي عبد التواب علي
أ. م. د. جمال الدين السيد أبو الوفا
أ. مافي محمد محمد أحمد

مقدمة:

كرس شيشرون نفسه وهو في صدر شبابه لدراسة الفلسفة بحماس منقطع النظير، ورغم أنه انشغل بعد ذلك بالمشاركة في الحياة السياسية في روما وتقلد العديد من المناصب السياسية الرفيعة، فإنه كان يقضي لحظات وقت فراغه في القراءة وفي منتديات المثقفين.

تاريخ كتابة "عن الشيخوخة":

قضى شيشرون عامين من اعتزال الحياة السياسة في منزله الريفي في توسكولوم (٤٥-٤٤ ق.م.)، وذلك عقب اغتيال يوليوس قيصر، وقبل الدخول في صراع سياسي مع ماركوس أنطونيوس. والحق إنها كانت فترة مثمرة في إنتاج المؤلفات الفلسفية، ففي عمله "عن العرافة" (De Divinatione 2.3) يعدد شيشرون المؤلفات الفلسفية التي كتبها في هذه الفترة حيث يذكر أنه انتهى لتوه من كتابة عمله "عن طبيعة الآلهة" ويتكون من ثلاثة كتب، وأنه قبل ذلك العمل قد كتب مؤلفاته "عن الجمهورية " في ستة كتب، وألف "عن الشيخوخة" التي وجهها إلى صديقه أتيكوس، وأنه يعتزم أن يكمل حديثه "عن العرافة" بعمل آخر يحمل عنوان "عن القدر" ، ويضيف أنه في هذه الفترة ألف ثلاثة مؤلفات عن الخطابة حيث كتب

" عن الخطيب " في ثلاثة كتب، و "بروتوس" و "الخطيب "؛ هذا علاوة على عمله " عن حدود الخير والشر " ومناقشات توسكولانية.

الشخصيات الحوارية:

كاتو (كاتو الأكبر أو كاتو الرقيب): (٢٣٤-١٤٩ ق.م.)

هو سياسي روماني مشهور، من أصل سابيني، وقد تقلد منصب القنصل عام ١٩٥ ق.م. فأصبح رجلًا جديدًا novus homo أي أول فرد في أسرته يحصل على القنصلية ويصبح عضوًا في مجلس الشيوخ الروماني، وهكذا صار نموذجًا يُحتذى لكل الشباب الطموح من خارج الأسر الأرستقراطية، ويبدو أن شيشرون قد اتخذ منه قدوة له، ونجح هو الآخر في أن يصبح رجلًا جديدًا.

وبالمثل فإنه كمؤلف تعد مؤلفاته محطة غاية في الأهمية في تطور النثر اللاتيني، فقد تخلى عن موروث الكتابة التاريخية القائم على نظام الحوليات وشرع في كتابة تاريخية جديدة وذلك في عمله "الأصول" Origines (١٦٨ ق.م.) الذي تناول فيه تاريخ المدن الإيطالية ومدينة روما على وجه الخصوص، وفيه هاجم بشدة نزوع بعض القادة العسكريين الرومان إلى الهيمنة الفردية على السياسة الرومانية، مما يجعل القضاء على الجمهورية والعودة إلى الحكم الفردي أمرًا واردًا. كما عارض بقوة نظام الصالونات الأدبية التي كان يقيمها بعض الأثرياء من ذوي النفوذ في الدولة وأشهرها صالون سكيبيو الذي احتشد فيه أغلب أدباء ذلك العصر مثل الشاعر ترنتيوس ولوكيليوس.

اكتسب كاتو شهرة عريضة كمدافع عن الأخلاق الرومانية والتقاليد الرومانية المتوارثة، وكناقد للغزو الثقافي اليوناني، لكن شيشرون في "عن الشيخوخة" صوره كمتحمس للثقافة اليونانية، كما صوره كشخص محبوب من سكيبيو وأعضاء صالونه الأدبي. في فترة عمله كرقيب فرض ضرائب باهظة على مظاهر الترف التي

غزت المجتمع الروماني، وضرب المثل على نفسه بالعيش حياة تتسم بالبساطة الشديدة. وقد صار مضرب المثل للأجيال الرومانية اللاحقة بالرجل الروماني الوطني الذي نجح أن يتقلد أعلى المناصب، رغم أصوله البسيطة، وذلك بفضل اجتهاده وتفانيه في حب الجمهورية الرومانية.

سكيبيو الأصغر: بوبليوس كورنيليوس سكيبيو أيميليانوس أفريكانوس، المعروف باسم سكيبيو الأصغر، عاش ما بين ١٨٥ أو ١٨٤ إلى ١٢٩ ق.م.، وهو ابن أيمليوس باولوس قاهر مقدونيا، وقد تبناه سكيبيو أفريكانوس الأكبر الذي انتصر على هانيبال في الحرب البونية الثانية، فأصبح اسمه سكيبيو أيميليانوس. وقد سار سكيبيو الأصغر على خطى جده سكيبيو الأكبر في أنه قام بتدمير قرطاجة عام ١٤٦ ق.م.، وهو ما كان يطلبه كاتو. اشتهر سكيبيو إلى جانب إنجازاته العسكرية بحبه للأدب والفلسفة والثقافة الإغريقية، كما أنه أول من عمل صالون أدبي في روما.

جايوس لايليوس: وُلد جايوس لايليوس عام ١٩٠ ق.م. وتُوفي عام ١٢٩ ق.م. ، وهو خطيب روماني مفوه ورجل دولة، وقد حصل على القنصلية عام ١٤٠ ق.م.؛ اتخذ منه شيشرون المتحدث الرئيس في محاورة "عن الصداقة" التي كتبها شيشرون في العام نفسه الذي كتب فيه محاورة "عن الشيخوخة"، فقد كان الصديق الحميم لسكيبيو الأصغر، وقد ساعده في تدمير قرطاجة، كما كان عضوًا في صالونه الأدبي، وساهم في نشر مؤلفات الفيلسوف الرواقي بنايتيوس.

وهكذا فقد اختار شيشرون شخصيات محاورته بعناية من الشخصيات الرومانية البارزة، التي تتمتع بين الرومان بالسمعة الطيبة والأخلاق الحميدة، وحازت شهرة واسعة بفضل إنجازاتها في خدمة الجمهورية الرومانية.
في محاورته " عن الصداقة " التي أهداها إلى أتيكوس أيضًا يعلل لماذا اختار كاتو الأكبر ليكون المتحدث الرئيس في محاورة " عن الشيخوخة " بأنه عاش عمرًا طويلًا

بلا متاعب صحية، كما أنه أفضل من قضى شيخوخته على نحو وقور، وعلى هذا أطلق النقاد على هذه المحاورة اسم "كاتو الأكبر عن الشيخوخة"، حيث يقول:

sed ut in Catone maiore, qui est scriptus ad te de senectute, Catonem induxi senem disputantem, quia nulla videbatur aptior persona quae de illa aetate loqueretur, quam eius, qui et diutissime senex fuisset et in ipsa senectute praeter ceteros floruisset; (Cic. De Am. 4)

" لكن في عملي " كاتو الأكبر"، الذي كتبته من أجلك حول موضوع الشيخوخة، قد اتخذت من كاتو الأكبر، عندما صار شيخًا، ليكون المتحدث الرئيس، وذلك لأنه حسب اعتقادي لا توجد شخصية أنسب منه يمكنها الحديث عن هذه الفترة من العمر، إذ إنه عاش مدة زمنية طويلة جدًا في مرحلة الشيخوخة، كما أنه بز الآخرين في أنه عاش شيخوخة مزدهرة، ...."

اهتم دارسو محاورات شيشرون بالقيمة التاريخية للشخصيات الحوارية التي رسمها شيشرون لشخصيات محاوراته، خاصة وأن شيشرون قد كتب محاوراته في السنوات التسع التي تلت عودته من المنفى (٥٦-٤٧ ق.م.) التي تعكس اهتمام شيشرون البالغ بالتطبيق العملي للأخلاق الرومانية المتوارثة وذلك باعتبارها العلاج الناجع للأمراض السياسية التي تعاني منها روما في ظل هيمنة قيصر. ففي هذه المحاورات يرسم شيشرون نماذجه التاريخية من شخصيات منتصف القرن الثاني قبل الميلاد بنغمة المحافظين المتفائلين الذين يشعرون بالحنين لهذه الحقبة التي يعدها شيشرون ذروة ازدهار الجمهورية الرومانية. إن فكر شيشرون الفلسفي والسياسي يتضح لنا من خلال رسمه لشخصيات محاوراته ومن بينهم كاتو الأكبر، فكلماتهم وتصرفاتهم تعكسان المفاهيم الرومانية الأصيلة مثل "السلطة الروحية" auctoritas والإخلاص fides والمجد gloria والسلوك الإنساني الراقي humanitas. والحق أن شيشرون قد وقع اختياره على كاتو كبطل لمحاورته لسببين ومن بينها ما يتمتع به من سلطة روحية auctoritas وهي السلطة أو النفوذ الروحي الذي يتمتع به رب الأسرة في عائلته أو عضو مجلس الشيوخ في

المجتمع الروماني، حيث كان أعضاء المجلس يُطلق عليهم الآباء، فلكل عضو سلطة روحية تماثل سلطة الأب في بيته:

hunc librum ad te de senectute misimus. omnem autem sermonem tribuimus non Tithono, ut Aristo Ceus—parum enim esset auctoritatis in fabula—sed Marco Catoni seni, quo maiorem auctoritatem haberet oratio;(1. 3)

" وإنني أرسل إليك هذا الكتاب عن الشيخوخة. بيد أنني لم أجعل الحديث كله يجري على لسان تيثونوس، مثلما فعل أرسطو من خيوس، لأن الرواية الأسطورية تحظى بالقليل من المصداقية، بل جعلت الحديث على لسان الشيخ الوقور ماركوس كاتو، لكي يحظى الحديث بمصداقية أكبر؛"

وبالرغم من أن كاتو الأكبر لم يكن الشخصية الرئيسة في أي من محاورات شيشرون سوى في عمليه Consolatio و De Senectute وهما عملان قصيران وجههما إلى أتيكوس في نهاية عام ٤٥ ومطلع عام ٤٤ ق.م. ، فإن شيشرون قد اتخذ منه الشخص المناسب للتعبير عن إحباطات الطبقة الأرستقراطية المثقفة وسقوط القيم الأخلاقية التي قامت عليها الجمهورية الرومانية، ولهذا فإنه في افتتاحية محاورة " عن الشيخوخة" عبر عن مدى قلقه إزاء الوضع السياسي الراهن لانفراد قيصر بالسلطة، وعدم رضاه عن معاصرته لهذه الأحداث المؤسفة وهو على مشارف الشيخوخة حيث يقول:

et tamen te suspicor eisdem rebus quibus me ipsum interdum gravies commoveri, quarum consolatio et maior est et in aliud tempus differenda; nunc autem mihi est visum de senectute aliquid ad te conscribere. hoc enim onere, quod mihi commune tecum est, aut iam urgentis aut certe adventantis senectutis, et te et me etiam ipsum levari volo, etsi te quidem id modice ac sapienter, sicut omnia, et ferre et laturum esse certo scio; sed mihi cum de senectute vellem aliquid scribere, tu occurrebas dignus eo munere quo uterque nostrum communiter uteretur. mihi quidem ita iucunda huius libri confectio fuit ut non modo omnes absterserit senectutis molestias, sed effecerit mollem etiam et iucundam senectutem. numquam igitur digne satis laudari philosophia poterit, cui qui pareat omne tempus aetatis sine molestia possit degere. (De Sen. 1. 1-2)

" ومع ذلك يساورني الشك أنك أحيانًا تشعر بالانزعاج على نحو جد خطير من ذات الظروف التي أصابتني بالاضطراب، والتي يعد التماس الراحة منها أمرًا شاقًا للغاية، وينبغي تأجيل الحديث عنها إلى وقت آخر. على أية حال، يبدو لي الآن أن أكتب إليك شيئًا عن الشيخوخة.

حيث إنني أرغب في التخفيف عنك وعن نفسي أيضًا من وطأة عبء الشيخوخة، الذي يعد قاسمًا مشتركًا بيني وبينك، فهي إما أنها قد حلت بنا بالفعل أو أنها بالتأكيد على وشك الوصول؛ ومع ذلك فإنني أعلم تمامًا أنك تتحمل ذلك العبء وسوف تتحمله بالطبع بهدوء وحكمة مثلما تتحمل جميع الأشياء الأخرى. لكن عندما رغبت أن أكتب شيئًا عن الشيخوخة، خطرت أنت ببالي، باعتبارك الشخص الجدير بتلك الهدية، التي قد ينتفع بها كلانا على حدٍ سواء.

والحق إن تأليف هذا الكتاب كان أمرًا مبهجًا جدًا لي، لدرجة أنه لم يمح فقط كل منغصات الشيخوخة، وإنما جعلها يسيرة، بل وشيخوخة مبهجة. وعلى ذلك لن يكون بمقدور الفلسفة أبدًا أن تحظى بالمديح الخليق بها قدر الكفاية، فمن يطيع تعاليمها، سيكون باستطاعته قضاء كل مراحل العمر بلا منغصات."

وعلى الرغم من تأكيد شيشرون أن سبب كتابة هذه المحاورة هو إيجاد السلوى لمن دخل في سن الشيخوخة وتوجيهه بأفضل الوسائل لقضاء هذه الفترة من العمر على نحو جيد، وليس إيجاد علاج ناجع للوضع السياسي الراهن، فإن شيشرون يكتب لأتيكوس كنتيجة للانقسام السياسي الحزبي الذي دفعه إلى الابتعاد عن المشهد السياسي وعدم قدرته على الخطابة في ظل ديكتاتورية قيصر.

بناء محاورة " عن الشيخوخة":

يستهل شيشرون المحاورة بالحديث عن سبب كتابته للمحاورة وهو أنه ربما يستفيد منها هو وصديقه أتيكوس عندما يبلغا سن الشيخوخة، وكان شيشرون قد بلغ الثانية والستين من العمر عندما شرع في كتابة هذا العمل، وهو السن الذي يعتبره الرومان بداية فترة الشيخوخة، في حين أن أتيكوس كان يكبره بأربع سنوات

(١١٠-٣٢ ق.م.)؛ وأتيكوس هو من أصدقاء الطفولة لشيشرون وناصحه الأمين، وهو فارس روماني من أسرة ثرية، وكان من رعاة الأدب في عصره، ويعود إليه الفضل في نشر الغالبية العظمى من مؤلفات شيشرون، وكان من أتباع الفلسفة الإبيقورية.

يبدأ الحوار بذهاب الصديقان الحميمان لايليوس وسكيبيو إلى منزل كاتو الأكبر، فيدور الحوار بينهم عن فترة الشيخوخة والتعامل الأمثل معها، حيث يفتتح لايليوس وسكيبيو الحوار بإظهار تعجبهما من كيفية استثمار كاتو لهذه الفترة من العمر التي يعدها الكثير من الناس أنها تمثل عبء كبير، وقد جعل شيشرون هذا الحوار يجري في العام السابق على وفاة كاتو، الذي توفي بعد أن بلغ من العمر الخامسة والثمانين، وفي بعض الروايات أنه قد تخطى سن التسعين.

تحتوي المحاورة على ٨٥ فصل:

- (١-٣) يبدأ شيشرون المحاورة بتمهيد، وفيه يهدي العمل إلى صديقه أتيكوس، ويعلل سبب كتابته للمحاورة وهو بلوغه هو وأتيكوس لسن الشيخوخة، حيث يقول: " حيث إنني أرغب في التخفيف عنك وعن نفسي أيضًا من وطأة عبء الشيخوخة، الذي يعد قاسمًا مشتركًا بيني وبينك، فهي إما أنها قد حلت بنا بالفعل أو أنها بالتأكيد على وشك الوصول؛ ومع ذلك فإنني أعلم تمامًا أنك تتحمل ذلك العبء وسوف تتحمله بالطبع بهدوء وحكمة مثلما تتحمل جميع الأشياء الأخرى. لكن عندما رغبت أن أكتب شيئًا عن الشيخوخة، خطرت أنت ببالي، باعتبارك الشخص الجدير بتلك الهدية، التي قد ينتفع بها كلانا على حدٍ سواء."

ويبرر اختياره لكاتو ليكون المتحدث الرئيس في المحاورة، " وجعلت الحديث على لسان الشيخ الوقور ماركوس كاتو، لكي يحظى الحديث بمصداقية أكبر؛"

ويلفت شيشرون انتباهنا أنه سوف يضع على لسان كاتو كلمات تتسم بثقافة عالية تفوق قدرات شخصية كاتو الحقيقية.

- (٤-٩) هي المقدمة الحقيقية للمحاورة حيث يعبر سكيبيو عن إعجابه بشيخوخة كاتو التي تتسم بأنها سعيدة ومفعمة بالنشاط، فيرد كاتو أن السر وراء ذلك هو أنه يعيش في تناغم مع قوانين الطبيعة، وهو بذلك يعلن أنه يتبع تعاليم الفلسفة الرواقية؛ وهنا يطلب لايليوس من كاتو أن يخبرهما بكيفية الوصول لشيخوخة ناجحة مثل شيخوخته. يوافق كاتو على إرشادهما إلى السبيل الأمثل للشيخوخة السعيدة، ولكنه يلفت نظرهما أن مقومات الشخصية لها عامل كبير لبلوغ مثل هذه الشيخوخة. وهنا يقول لايليوس إن الثروة من العناصر الأساسية لجعل الشيخوخة سعيدة، وهنا لا ينكر كاتو هذا الرأي ولكنه يصر على أن مقومات الشخصية هي العنصر الأهم، فهناك كبار في السن أثرياء ولا يعيشون شيخوخة سعيدة.

- (١٠-١٤) يقدم كاتو نماذج لبعض المشاهير الذين كبروا في السن وعاشوا شيخوخة مفيدة وسعيدة ومن بينهم فابيوس ماكسيموس وأفلاطون وإيسوكراتيس وجورجياس وإنّيوس.

- (١٥) يوضح كاتو أن هناك أربعة انتقادات توجه إلى الشيخوخة وهي: أنها تبعد الرجال عن الحياة النشطة، وأنها تصيب الجسد بالوهن والضعف، وأنها تفقد المرء من الاستمتاع بالمتع الحسية وفي مقدمتها الجنس، وأنها تجعل الإنسان أقرب إلى الموت.

- (١٥-٢٠) يناقش شيشرون الانتقاد الأول الموجه إلى الشيخوخة، وهو أنها تبعد الرجال عن الحياة النشطة، ويقول إن لكبار السن أهمية كبيرة في خدمة الوطن، وخدماتهم لا تتطلب القوة البدنية، بل تتطلب الخبرة والحكمة كالمشاركة في جلسات مجلس الشيوخ الروماني الذي لولا حكمة أعضائه من الشيوخ ما تمكنت روما من تكوين هذه الإمبراطورية.

- (٢١-٢٢) يرد شيشرون على اتهام كبار السن بضعف الذاكرة ويقول إن هذا ليس عيبًا في كبار السن وحدهم، بل هو عيب لدى بعض البشر، وأن على الإنسان أن يمارس بعض التدريبات التي تقوي الذاكرة.

- (٢٣-٢٦) يقدم شيشرون نماذج لبعض كبار السن الذين حافظوا على نشاطهم في العمل حتى نهاية حياتهم.

- (٢٧-٣٢) ينتقل شيشرون إلى الدفاع عن الانتقاد الثاني المتعلق بالوهن الذي يصيب قوى الجسد في مرحلة الشيخوخة فيقول إن كبار السن لا يرغبون في قوة الشباب ولا يحتاجونها، ويرى أن لا قيمة للقوة البدنية المفرطة في سن الشباب ويضرب المثل على ذلك بقوة ميلو من كريتون الذي كان يحمل ثورًا حيًا في ساحة الألعاب فينال استحسان الجمهور، أما كبار السن فبإمكانهم ممارسة نفوذهم بوسائل أخرى، مثل إسداء النصح للشباب. ويرى شيشرون أن تعليم الشباب هي مهمة سامية يتمتع بها كبار السن حتى لو وهنت أجسادهم. ويرجع شيشرون أن وهن أجساد الشيوخ سببه في أغلب الأحوال إلى سلوكهم غير الحميد في سن الشباب. ثم يضرب المثل على الكثير من كبار السن الذين بلغوا من العمر أرذله ومع ذلك احتفظوا بقوة الجسد وممارسة نفس النشاط الذي اعتادوا ممارسته في سن الشباب.

- (٣٣-٣٤) يقارن شيشرون بين امتلاك القوة العضلية لدى الشباب والقوة العقلية التي يتمتع بها كبار السن مثل فيثاغورس، ويخلص إلى أن كل مرحلة سنية عليها أن تستمتع بمميزاتها، وإنه لمن الحماقة الندم على ما يفقده الإنسان بفعل الزمن.

- (٣٥-٣٨) يذكر شيشرون أن ضعف البنيان والصحة لا يتعلقان بكبار السن وحدهم، فهناك من الشباب من يتسم بضعف البنيان، ويضرب أمثلة على ذلك. كما يوضح شيشرون أن التدريب والاعتدال في سن الشباب يساعدان المرء أن يعيش شيخوخته بصحة جيدة. ويضيف أن الوقار هو أهم ثمار الشيخوخة.

- (٣٩-٤٤) يرد على الانتقاد الثالث الذي يتعلق بفقد كبار السن للكثير من المتع الحسية ويقول إن فقدان كبار السن للشهوة الجنسية هو نعمة وليس نقمة حيث يقول: " ليس هناك بلية قدمتها الطبيعة للبشر أكبر من شهوة الجسد."

ويقول: " لم تمنح الطبيعة الإنسان أي شيء أفضل من العقل، فإنه لا يوجد عدوًا لدودًا لهذه الهبة والعطية الإلهية أكثر من الشهوة."

ويقول: " ينبغي علينا أن نشعر بالامتنان العظيم للشيخوخة، التي تتسبب في جعلنا لا نرغب في الشيء الذي لا ينبغي علينا فعله. لأن الشهوة الحسية تعيق قدرتنا على الحكم، فهي عدو للتفكير المنطقي، وطبقًا لما سوف أقوله، إنها تغشي عيون العقل، وليس بينها وبين الفضيلة أية قناة اتصال."

وفي هذا السياق يسخر شيشرون من أبيقور ومن الفلسفة الإبيقورية التي تدعو إلى اللذة الحسية، حيث يقول:

" كان يوجد ثمة رجل في أثينا يُلقِّب نفسه بالحكيم، وكان هذا الرجل يقول إن كل الأشياء التي نفعلها ينبغي أن تُقاس بقدر ما تحققه لنا من متعة."

وعلى هذا فإن بعد كبار السن عن الشهوات الحسية نعمة كبيرة حيث يقول:

" لا تظهر الشيخوخة ميلًا شديدًا نحو المتع الحسية، وذلك لا يعد نقيصة فحسب، بل إنه مدعاة للثناء البالغ للشيخوخة. فهي تخلو من الولائم والموائد المكدسة وأقداح الخمر المتكررة. كما تخلو أيضًا من السُكْر والتخمة والسهر. ..... وهذا أفلاطون الملهم من الآلهة يطلق على المتع الحسية "طُعم الأشرار"، لأن البشر يقعون في شراكها كما يقع السمك."

- (٤٥-٥٠) يوضح شيشرون أن لكبار السن متع أخرى تختلف عن المتع الحسية، مثل لقاء الأصدقاء في المنتديات وتجاذب أطراف الحديث معهم، وكذلك الاستمتاع بالدراسة وقراءة الأعمال الأدبية، وهنا يقول: " هل يمكن لمتع الولائم والألعاب والمواخير أن تُقارن بمثل هذه المتع؟"

- (٥١-٦١) يتحدث باستفاضه عن استمتاع كبار السن بزراعة بساتينهم، حيث يقول:

" والآن أعرج إلى مباهج المزارعين، التي أجد فيها متعة لا يمكن وصفها، والتي لا تعوقها الشيخوخة أبدًا، وتبدو لي أنها الأقرب من حياة الحكيم."

هذا كما أن هناك وسائل للهو تناسب كبار السن ولا تتطلب جهدًا بدنيًا مثل ألعاب النرد، حيث يقول: " وعلى ذلك دع (الشباب يستمتعون) بامتلاك الأسلحة، والجياد، والرماح، والهراوة، ومباريات الكرة، وسباقات العدو. ومن وسائل اللهو العديدة فلتتركوا لنا نحن معشر الشيوخ النرد والمكعبات؛"

- (٦٢-٦٤) يمدح شيشرون ما يتمتع به كبار السن من وقار، وهذا الوقار ليس وليد اللحظة، بل إنه ناتج عن أخلاق المرء في سنوات عمره السابقة، حيث يقول:

" ليس بمقدور الشعر الأبيض أو التجاعيد أن يجلبا الوقار فجأة، بل إن المرء الذي يعيش سنوات عمره الأولى على نحو يتسم بالنبل، يجني ثمار الوقار في سنوات عمره الأخيرة."

ثم يروي شيشرون قصة عن توقير الإسبرطيين لكبار السن:

" هناك قصة تحكي أنه أثناء العروض المسرحية في أثينا، أتى رجل مسن إلى المسرح، ولم يقدم أحد من مواطني بلدته مكانًا له وسط الزحام الشديد للجمهور، ولكنه عندما اقترب من (مقاعد) الإسبرطيين، التي كانت قد خصصت لهم لكونهم سفراء بلدتهم، يُقال إن جميعهم وقفوا من أجله، ودعوا الشيخ للجلوس. عندما صفق لهم جميع الحضور تصفيقًا حارًا، قال واحد منهم: " الأثيني يعرف ما هو السلوك القويم، ولكنه لا يرغب في فعله."

- (٦٥) يدافع شيشرون عن اتهام كبار السن بالعبوس والمزاج الحاد وصلابة الرأي، وهنا يقول إن هذه العيوب هي عيوب في الشخصية وليست عيوب توصم بها الشيخوخة. كما يبرر سلوك بعض الشيوخ العصبي بأن له دوافع نفسيه فكبار السن يشعرون دائمًا بأنهم مدعاة للتجاهل والاحتقار والسخرية منهم.

- (٦٦-٨٥) يتحدث شيشرون عن السبب الرابع لكراهية الشيخوخة وهو قربها من الموت. ويرى أنه لا ينبغي كراهية الموت فالروح لا تموت بموت الجسد، بل إنها تذهب إلى جنات عدن مع أرواح الصالحين. ويستشهد شيشرون بإنيوس الذي طلب من أصدقائه عد البكاء في جنازته فهو يعتقد أن الموت، الذي يعقبه الخلود، لا يستدعي النواح من أجله.

هذا كما أن الموت قد يقبض أرواح الشباب أيضًا، فهو لا يقتصر على كبار السن وحدهم. بل إن الشباب هم من يحسدون الشيوخ، فالشباب يأملون أن يطول بهم العمر إلى أن يبلغوا سن الشيخوخة.

ويخبرنا شيشرون أن قيمة العمر ليس بطول مدته ولكن العبرة بأن تعيش حياة شريفة. هذا كما يدعو الجميع إلى بذل الجهد من أجل أن يخلد كل إنسان ذكراه بعد موته، حيث يقول: " لكن إن لم يكن الأمر على هذا النحو، وهو أن الأرواح بحق خالدة، ما كانت أرواح الصفوة تناضل على وجه الخصوص من أجل تحقيق مجدًا خالدًا."

وينهي شيشرون المحاورة برأي كاتو أن الحياة الدنيا هي دار شقاء ولا ينبغي الندم على الرحيل منها، حيث يقول:

" ماذا تحتوي الحياة من مميزات؟ أو بالأحرى ما هو الشقاء الذي تخلو منه الحياة؟ لكن بفرض أنها تحتوي بقدر مقبول (على بعض المميزات)، فإنها، مع ذلك، تحتوي بالطبع على لحظة الشبع منها أو الخروج منها. وإنني لا أشعر بالندم على ما عشته، وحيث إنني قد عشت على هذا النحو، الذي يجعلني أدرك أن مولدي لم يكن بلا جدوى، وإنني أرحل عن الحياة كما لو كنت أرحل عن فندق، وليس عن منزلي، وذلك لأن الطبيعة منحتنا (الحياة) من أجل إقامة مؤقته، وليس من أجل إقامة دائمة. يا له من يوم رائع، عندما سوف أسافر للالتحاق بذلك الجمع السماوي من الأرواح، وعندما سوف أرحل عن هذا العالم (الذي يسوده) الصراع والدنس!"

ملاحظات على محاورة "عن الشيخوخة":

– تأخذ المحاورة الشكل الكامل للمحاورات، حيث يلتقي بعض الأصدقاء في منزل المتحدث الرئيس، فيطرح عليه الضيوف بعض الأسئلة ومن هذا المنطلق يبدأ الحوار. ومن الملاحظ أن هذا الحوار لم يكن طويلًا ولهذا لم يستغرق سوى جلسة واحدة في يوم واحد. وقد كان دور كل من سكيبيو ولايليوس هو طرح الأسئلة على كاتو، الذي كان دوره يرتكز على الدفاع عن الشيخوخة، ولهذا فقد بدا وكأنه محامي في ساحة القضاء يسوق الحجج والبراهين التي تبرأ ساحة المتهم أي "الشيخوخة".

– وعلى غرار خطب الدفاع وكذلك رسائل النصح والإرشاد والشعر التعليمي فإن شيشرون كان يقدم الحجج التي يدافع من خلالها عن الشيخوخة مشفوعة بالعديد من البراهين والأمثلة من الواقع والتاريخ التي تبرهن صدق قوله؛ وعلى ذلك فقد جمع شيشرون في هذه المحاورة الكثير من الأقوال والمواقف، التي انتشرت على ألسنة الناس وحفظها التاريخ، وجاءت على لسان شخصيات تاريخية مشهورة من التاريخ الروماني أو من الأدباء والفلاسفة الإغريق، أو تتعلق بشخصيات بارزة من الجنسيات الأخرى. ويمكننا أن نقسم هذه الشخصيات على النحو التالي:

* شخصيات من التاريخ الروماني بعضهم من رجال الدولة الذين قدموا لروما خدمات جليلة حتى في شيخوختهم مثل كوينتوس ماكسيموس، سكيبيو أفريكانوس الأكبر، لوكيوس أيميليوس باولوس، فابريكيوس لوسكينوس، كوريوس دنتاتوس، تيبريوس كورنكانيوس، أبيوس كلاوديوس، مانيوس كوريوس، لوكيوس ميتيلوس، ماركوس كيثيجوس، فاليريوس كورفينوس. ومن أشهر الأدباء والمثقفين الرومان الذين أدركتهم الشيخوخة، ولم تفت من عضدهم ولم تؤثر في عملهم، يذكر شيشرون إنيوس ونايفيوس وليفيوس أندرونيكوس وبلاوتوس وجايوس جالّوس وبوبليوس ليكينيوس.

* ومن مشاهير الإغريق الذين بلغوا من الكبر عتيًا وذكرهم شيشرون نجد بعض الشعراء والأدباء مثل سوفوكليس وهسيودوس وسيمونيديس وستسيخوروس وإيسوكراتيس، ومن الفلاسفة والمفكرين ذكر أفلاطون وفيثاغورس وجورجياس وديموقريطيس وإكسينوقراطيس وزينون وكليانثيس وديوجينيس الرواقي وسولون وأرخيتاس من تارنتوم؛ ومن رجال الدولة ثميستوكليس، ومن الرياضيين المصارع ميلو.

* وهناك من الملوك الأجانب كبار السن الذين تحدث شيشرون عن شيخوختهم مثل قورش الأكبر وقورش الأصغر وماسينيسا ملك نوميديا وأرجانثونيوس ملك تارتيسوس.

– كان من عادة شيشرون في جميع مؤلفاته دعم أفكاره وآراءه بالاستشهاد واقتباس بعض أقوال الأدباء والمفكرين، وفي هذه المحاورة استشهد أربع مرات بأبيات إنيوس، ومرتين بأبيات من الشاعر الكوميدي كايكيليوس ستاتيوس، ومرة واحدة من الشاعر نايفيوس.

– في مقدمة المحاورة يلفت شيشرون نظر القراء إلى أن كاتو كمتحدث رئيس في المحاورة سيبدو أنه أكثر ثقافة وسعة اطلاع مما هو معروف عنه في الواقع، كما أن أسلوبه سيكون أكثر بلاغة مما هو معروف عن أسلوب كاتو، وعلى هذا يوضح للقراء أن كل ما ورد على لسان كاتو هو في حقيقة الأمر آراء شيشرون نفسه:

qui si eruditius videbitur disputare quam consuevit ipse in suis libris, attribuito litteris Graecis, quarum constat eum perstudiosum fuisse in senectute. sed quid opus est plura? iam enim ipsius Catonis sermo explicabit nostram omnem de senectute sententiam. (Cic. De Sen. 1. 3)

"... فإن بدا الرجل في نقاشه أكثر ثقافة مما اعتاد أن يكون في مؤلفاته هو، فإنني أعزو ذلك إلى الأدب الإغريقي، الذي قيل إنه كان مولعًا به للغاية في شيخوخته. لكن ما الحاجة إلى قول المزيد في هذا الصدد؟ فإنه من الآن فصاعدًا سيعبر حديث كاتو نفسه عن كل آرائي عن الشيخوخة."

– لقد نجح شيشرون في تقديم تحفة أسلوبية في دفاعه عن الشيخوخة ويبدو ذلك واضحًا من تشبيهه لمراحل العمر وللشيخوخة بالعديد من التشبيهات العديدة، فها هو يشبه ثقل الشيخوخة على البشر بأنه يعادل ثقل جبل إتنا:

SCIPIO. Saepe numero admirari soleo cum hoc C. Laelio cum ceterarum rerum tuam excellentem, M. Cato, perfectamque sapientiam, tum vel maxime quod numquam tibi senectutem gravem esse senserim, quae plerisque senibus sic odiosa est, ut onus se Aetna gravius dicant sustinere. (Cic. De Sen. 2. 4)

"سكيبيو: كلما تحدثت مع جايوس لايليوس هذا كثيرًا ما اعتدت أن أعرب عن إعجابي، يا ماركوس كاتو، بتفوقك، وبحكمتك التامة في شتى الأمور، وأخص بالذكر أخيرًا ما لاحظته أن الشيخوخة لم تكن قط ثقيلة عليك، رغم أنها بغيضة جدًا

بالنسبة لكثير من كبار السن، لدرجة أنهم يزعمون أنهم يحملون حملًا أثقل من جبل إتنا."

دأب شيشرون أن يشبه حياة الإنسان وعمره بالعمل الدرامي، فحياة الإنسان هي مسرحية، ومراحل العمر المختلفة هي فصول المسرحية، ولا شك أن الشيخوخة هي الفصل الأخير من هذه الدراما؛ والحق أن تشبيه عمر الإنسان بالدراما من التشبيهات التي رددها أنصار المدرسة الكلبية. في بداية المحاورة يقول شيشرون:

……cum ceterae partes aetatis bene discriptae sint, extremum actum tamquam au inerti poeta esse neglectum. (Cic. De Sen. 2. 5)

" وحيث إنها (أي الطبيعة) هي التي كتبت بعناية (مشاهد) مراحل العمر الأخرى، فإنه ليس من المتوقع منها أن تهمل في كتابة المشهد الأخير لهذه الدراما (الحياتية)، وكأنه قد تم معالجته باستخفاف من قبل شاعر مسرحي مهمل."

في هذه الفقرة يشبه شيشرون أن الطبيعة، التي فرضت قوانينها على البشر بأن يمروا بمراحل عمر مختلفة من الطفولة إلى الشيخوخة، هي مؤلف هذه الدراما، وحيث إنها كانت بارعة في كتابة كل فصول الرواية فلا يُتوقع منها أن تكتب فصل الحياة الأخير بإهمال.

وبالقرب من نهاية المحاورة يؤكد شيشرون على هذا التشبيه حيث يقول إن من أهم مميزات الكبر في السن أن الرجل يحظى بالهيبة والوقار وهذه السلطة الروحية يجب الحفاظ عليها حتى نهاية العمر، فإن ألد أعداء كبار السن أن يصيبهم الخرف فيصبحون في نهاية العمر محل سخرية وضجر الشباب، حيث يقول شيشرون:

quibus qui splendide usi sunt, ei mihi videntur fabulam aetatis peregisse nec tamquam inexercitati histriones in extremo actu corruisse. (Cic. De Sen. 18. 64)

"هناك من استخدموا تلك الامتيازات (السلطة الروحية) بشكل رائع، وهؤلاء يبدون لي بأنهم قد أدوا دورهم في دراما الحياة حتى نهايته، وليس مثل الممثلين غير المدربين الذين ينهارون في المشهد الأخير."

يؤكد شيشرون على هذا التشبيه بالقرب من نهاية المحاورة وفيها يشبه الموت بإسدال الستار في نهاية المسرحية، ويرى أن على الإنسان أي الممثل الجيد أن يتسم بالحكمة، فمادام قد نال استحسان الجمهور في كل مشاهد المسرحية فإن عليه الانصراف مع إسدال الستار:

neque enim histrioni, ut placeat, peragenda fabula est, modo in quocunque fuerit actu probetur; neque sapientibus usque ad "plaudite" veniendum est, breve enim tempus aetatis satis longum est ad bene honesteque vivendum; (Cic. De Sen. 19. 70)

" فالممثل، على سبيل المثال، لكي يمتع الجمهور، لا يحتاج إلى الظهور في كل المشاهد حتى المشهد الأخير، فيكفيه أن يكون محل استحسان الجمهور في المشاهد التي مثلها؛ وعلى ذلك فإنه ليس من الضروري على الحكماء أن يظلوا على هذه الخشبة الفانية حتى إسدال الستار في النهاية."

وفي الفصل الأخير من المحاورة ينهي بالتأكيد على هذا التشبيه بأن الشيخوخة هي المشهد الأخير من المسرحية، ويؤكد على فكرة أنه على الحكيم ألا يخشى الموت الذي لا مفر منه:

senectus autem aetatis est peractio tamquam fabulae, cuius defetigationem[1] fugere debemus, praesertim adiuncta satietate. (Cic. De Sen. 23. 85)

"على أية حال، فإن الشيخوخة تبدو وكأنها المشهد الأخير من دراما العمر، الذي ينبغي الفرار منه وهو يزداد إرهاقًا، خاصة (وإننا نشعر) أننا قد حصلنا على ما فيه الكفاية."

وإلى جانب تشبيه العمر بالعرض المسرحي، نجد شيشرون يصور العمر بالسفر، ولأول مرة يدين شيشرون سمة من سمات بعض الشيوخ الذين كلما كبروا في السن زاد حرصهم على جمع المال، ولا يجد أي مبرر لهذا الطمع، ويشبه الشيخ الطماع بالمسافر الذي يحمل الكثير من الحقائب في رحلته:

…….. avaritia vero senilis quid sibi velit, non intellego. Potest enim quicquam esse absurdius quam, quo viae minus restet, eo plus viatici quaerere? (Cic. De Sen. 18. 65-66)

" ..... وبالنسبة إلى الطمع عند كبار السن، فلا أفهم ما الهدف منه.
لأنه هل يمكن أن يكون هناك شيء أكثر سخافة من السعي وراء المزيد من حقائب السفر، في حين أنه لم يتبق من الرحلة سوى أقل القليل.

وفي موضع آخر يشبه العمر برحلة بحرية طويلة وأن بلوغ السفينة الميناء يفيد انتهاء العمر:

…….quae quidem mihi tam iucunda est, ut, quo propius ad mortem accedam, quasi terram videre videar aliquandoque in portum ex longa navigatione esse venturus. (Cic. De Sen. 19. 71)

" .... فبالنسبة لي حقًا فإن نضج الشيخوخة هذا شيء ممتع جدًا، لدرجة أنني كلما اقتربت من الموت أكثر أصبحت أبدو (كملاح) يرى الأرض بعد رحلة بحرية طويلة وأصبح على وشك أن يدخل الميناء في أي لحظة."

ترجمة " كاتو الأكبر عن الشيخوخة "

١. (١) " أي تيتوس، إن كان بمقدوري أن أوجه إليك أي شيء وأن أزيح عنك الهم، الذي استقر في صدرك، ويجعلك الآن تغلي وتتأجج، فماذا ستكون جائزتي؟ "

لأنه يحق لي، يا أتيكوس[١]، أن أخاطبك بتلك الأبيات نفسها التي وجهها (إنّيوس) إلى فلامينينوس[٢] ذلك الرجل الذي لا يتمتع بثروة طائلة، ولكنه ثرى بالإخلاص،[٣] وعلى الرغم من أنني أعلم بالتأكيد أنه لا (يمكن أن يُقال لك) مثل فلامينينوس:

" إن القلق يضنيك يا تيتوس على هذا النحو طيلة الليالي والنهار،"

وذلك لأنني أعلم مدى رجاحة عقلك واستواء شخصيتك، كما إنني على يقين أنك قد جلبت معك من أثينا ليس فقط لقبك (الأتيكي)، بل عدت أيضًا بالثقافة والحكمة العملية؛ ومع ذلك يساورني الشك أنك أحيانًا تشعر بالانزعاج على نحو جد خطير من ذات الظروف[٤] التي أصابتني بالاضطراب، والتي يعد التماس الراحة منها أمرًا

---

[١] تيتوس بومبونيوس أتيكوس (١١٠-٣٢ ق. م.) صديق شيشرون الحميم، وأحد رعاة الأدب في ذلك الوقت.

[٢] تيتوس كوينكتيوس فلامينينوس (٢٢٨-١٧٤ ق.م.) قنصل عام ١٩٩ ق.م. كان معاصرًا لإنيوس، وهو حفيد لوكيوس كوينكتيوس كبير كهنة معبد جوبيتر Flamen Dialis ، ومن هنا حصلت عائلته على لقب فلامينينوس. وتعود شهرته إلى قيادته للجيوش الرومانية في الحرب المقدونية الثانية، وقد حقق انتصارًا باهرًا ثم دخل في مفاوضات مع الملك المقدوني انتهت بإبرام اتفاق سلام، ويبدو أنه قد أملى شروطه على الملك. وعلى الأرجح كان هناك إحساسًا قويًا بالخزي الذي حل على العائلة بسبب السلوك المشين لأخيه لوكيوس كوينكتيوس فلامينينوس، الذي تم طرده بشكل مخزي من مجلس الشيوخ على يد كاتو الأكبر، في فترة منصبه.

[٣] يقصد الشاعر إنيوس (٢٣٩-١٦٩ ق. م.).

[٤] يقصد الحرب الأهلية بين قيصر وبومبي التي انتهت بانفراد قيصر بالحكم وهيمنته على الحياة السياسية في روما، ورغم أن أتيكوس كان يسير على تعاليم الإبيقورية وبالتالي لا يبالي كثيرًا بالشئون العامة، فإن شيشرون يشير أنه من حين لآخر يشعر بالقلق على مصير الجمهورية الرومانية التي دافع عنها شيشرون حتى الرمق الأخير.

شاقًا للغاية، وينبغي تأجيل الحديث عنها إلى وقت آخر. على أية حال، يبدو لي الآن أن أكتب إليك شيئًا عن الشيخوخة.

١. (٢) حيث إنني أرغب في التخفيف عنك وعن نفسي أيضًا من وطأة عبء الشيخوخة، الذي يعد قاسمًا مشتركًا بيني وبينك، فهي إما أنها قد حلت بنا بالفعل أو أنها بالتأكيد على وشك الوصول[٥]؛ ومع ذلك فإنني أعلم تمامًا أنك تتحمل ذلك العبء وسوف تتحمله بالطبع بهدوء وحكمة مثلما تتحمل جميع الأشياء الأخرى. لكن عندما رغبت أن أكتب شيئًا عن الشيخوخة، خطرت أنت ببالي، باعتبارك الشخص الجدير بتلك الهدية، التي قد ينتفع بها كلانا على حدٍ سواء.

والحق إن تأليف هذا الكتاب كان أمرًا مبهجًا جدًا لي، لدرجة أنه لم يمح فقط كل منغصات الشيخوخة، وإنما جعلها يسيرة، بل وشيخوخة مبهجة. وعلى ذلك لن يكون بمقدور الفلسفة أبدًا أن تحظى بالمديح الخليق بها قدر الكفاية، فمن يطيع تعاليمها، سيكون باستطاعته قضاء كل مراحل العمر بلا منغصات.

١. (٣) ولكنني قد تناولت الكثير من الموضوعات الأخرى، وفي الغالب سوف أتناول الكثير: وإنني أرسل إليك هذا الكتاب عن الشيخوخة. بيد أنني لم أجعل الحديث كله يجري على لسان تيثونوس[٦]، مثلما فعل أرسطو من خيوس[٧]، لأن الرواية الأسطورية تحظى بالقليل من المصداقية، بل جعلت الحديث على لسان الشيخ الوقور ماركوس كاتو[٨]، لكي يحظى الحديث بمصداقية أكبر؛ وجعلت

---

٥ كان أتيكوس يكبر شيشرون بأربع سنوات، فعند كتابة هذا العمل كان شيشرون وأتيكوس قد تخطا سن الستين.

٦ تيثونوس أمير طروادي، وهو ابن الملك لاؤوميدون من الحورية ستريمو؛ وترمز قصته إلى طول العمر، فقد وقعت في حبه ربة الفجر إيوس، التي طلبت من زيوس أن يمنحه الخلود، بيد أنها نسيت أن تطلب له أيضًا الشباب الدائم، فطال به العمر وقد صار شيخًا كبيرًا.

٧ فيلسوف رواقي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد، وقد ألف عملًا عن الشيخوخة.

٨ ماركوس بوركيوس كاتو، المعروف باسم كاتو الأكبر أو كاتو الرقيب (٢٣٤-١٤٩ ق.م.).

لايليوس[٩] وسكيبيو[١٠] يتواجدان في منزله ليظهرا إعجابهما، لأن ذلك الرجل يقضي شيخوخته بيسر بالغ، وجعلته يجيب عليهما؛ فإن بدا الرجل في نقاشه أكثر ثقافة مما اعتاد أن يكون في مؤلفاته هو، فإنني أعزو ذلك إلى الأدب الإغريقي، الذي قيل إنه كان مولعًا به للغاية في شيخوخته. لكن ما الحاجة إلى قول المزيد في هذا الصدد؟ فإنه من الآن فصاعدًا سيعبر حديث كاتو نفسه عن كل آرائي عن الشيخوخة.

٢. (٤) سكيبيو: كلما تحدثت مع جايوس لايليوس هذا كثيرًا ما اعتدت أن أعرب عن إعجابي، يا ماركوس كاتو، بتفوقك، وبحكمتك التامة في شتى الأمور، وأخص بالذكر أخيرًا ما لاحظته أن الشيخوخة لم تكن قط ثقيلة عليك، رغم أنها بغيضة جدًا بالنسبة لكثير من كبار السن، لدرجة أنهم يزعمون أنهم يحملون حملًا أثقل من جبل إتنا[١١].

كاتو: إنكما تبدوان، يا سكيبيو ولايليوس، بأنكما معجبان بأمر ليس صعبًا على الإطلاق. لأن من لا يملكون في ذواتهم أي من المقومات التي تجلب العيش حياة طيبة وسعيدة، تكون كل مرحلة من مراحل العمر ثقيلة عليهم؛ من ناحية أخرى، فإن هؤلاء الذين يطلبون من أنفسهم امتلاك كافة أوجه الخير، فإن لا شيء مما تفرضه قوانين الطبيعة يمكنه أن يبدو لهم شرًا. ومن هذه الأشياء من هذا القبيل تأتي في مقدمتهم الشيخوخة، التي يتمنى الجميع بلوغها، بيد أنهم يتذمرون منها هي ذاتها بمجرد بلوغها. ويا له من تناقض وعدم ثبات هائل يتمتع به الحمقى. فهم يقولون إنها تزحف نحوهم على نحو أسرع مما كانوا يتوقعون. في المقام الأول، من أرغمهم على التفكير على هذا النحو الخاطئ؟ لأنه كيف للشيخوخة أن تزحف

---

[٩] جايوس لايليوس، قائد عسكري ورجل دولة، والصديق الحميم لسكيبيو أيميليانوس.

[١٠] بوبليوس كورنيليوس سكيبيو أفريكانوس (٢٣٦-١٨٣ ق.م.) قائد عسكري روماني ورجل دولة، وصاحب الانتصار على قرطاجة في الحرب البونية الثانية.

[١١] جبل بركاني يقع في جزيرة صقلية.

على فترة الشباب على نحو أسرع من زحف فترة الشباب على مرحلة الطفولة[١٢]؟ وأخيرًا كيف يمكن للشيخوخة أن تكون أقل وطأة عليهم، إذا عاشوا لعامهم الثمانمائة بدلًا من عامهم الثمانين؟ لأن العمر الفائت، عندما يكون قد انصرم، ومهما كان طوله، لا يمكنه أن يواسي شيخوخة الحمقى بأية سلوى.

٢. (٥) وعلى ذلك، إن كنتما قد اعتدتما الإعجاب بحكمتي، التي أتمنى أن تكون جديرة بحكمكما وبلقبي (الحكيم)[١٣]، فإنني في هذا السياق أعد حكيمًا، لأنني أتبع الطبيعة كأفضل قائد، وأطيعها وكأنها إله[١٤]؛ وحيث إنها هي التي كتبت بعناية (مشاهد) مراحل العمر الأخرى، فإنه ليس من المتوقع منها أن تهمل في كتابة المشهد الأخير لهذه الدراما (الحياتية)، وكأنه قد تم معالجته باستخفاف من قبل شاعر مسرحي مهمل.

لكن، على أية حال، فإن نهاية ما يجب أن تحدث، مثلما هو الحال في ثمار الأشجار ومحاصيل الأرض، فعندما يحين موسم نضجها تبدو وكأنها تذبل وتميل

---

[١٢] قسم الرومان مراحل العمر على النحو التالي: مرحلة الطفولة pueritia وهي حتى يبلغ الغلام سن السابعة عشرة، وهو السن الذي يرتدي فيه عباءة الرجولة toga virilis وبداية الخدمة العسكرية؛ ومرحلة الشباب adulescentia وهي من السابعة عشرة وتمتد حتى سن الخامسة والأربعين؛ ومن الخامسة والأربعين إلى الستين هي مرحلة الكهولة aetas seniorum ، وفي هذه المرحلة في روما المبكرة لا يتم استدعاء أفرادها للدفاع عن المدينة؛ وأخيرًا سن الشيخوخة وتبدأ من سن الستين senectus .

[١٣] في محاورة "عن الصداقة" أطلق لايليوس على كاتو لقب " الحكيم " sapiens (Cic. De Am. 2.6)، ويقصد شيشرون بهذا اللقب الحكمة العملية القابلة للتطبيق في الحياة اليومية.

[١٤] سبق أن ذكر شيشرون أن كاتو في هذا العمل سيبدو أكثر ثقافة بمعنى أنه سينطق بتعبيرات فلسفية، وهنا يشير شيشرون إلى تعاليم الفلسفة الرواقية، التي يفضلها هو، حيث تدعو الرواقية أتباعها إلى العيش وفقًا للطبيعة " naturae convenienter vivere أو ὁμολογουμένος τῇ φύσει ζῆν, .

نحو السقوط، وأنه ينبغي على الحكيم أن يتحمل ذلك الأمر برحابة صدر. لأنه ماذا يفوق القتال ضد الآلهة على غرار المردة[١٥] سوى مقاومة الطبيعة؟

٢. (٦) لايليوس: صدقت يا كاتو، وإنك سوف تصنع لنا معروفًا، وأظن أنني أتحدث نيابة عن سكيبيو أيضًا، وحيث إننا نأمل أن نبلغ سن الشيخوخة أو نتمنى ذلك على أقل تقدير، لو أنك تعلمنا، مسبقًا، بأي من تعاليمك يمكننا أن نتحمل بكل يسر ثقل هذه المرحلة من العمر (أي الشيخوخة) الذي يزداد يومًا بعد يوم.

كاتو: سأفعل ذلك حقًا، يا لايليوس، خاصة وأن ذلك سيكون محل ترحيب من كليكما، حسب قولك.

لايليوس: نرغب في ذلك بالفعل، ما لم يكن في ذلك إزعاجًا لك. لقد قطعت، يا كاتو، ما يمكن وصفه بالطريق الطويل، الذي ينبغي علينا أيضًا أن نمشيه، ونود أن نرى طبيعة المكان الذي وصلته.

٣. (٧) كاتو: سأفعل ذلك، قدر استطاعتي، يا لايليوس، لأنني كثيرًا ما أصغيت لشكوى من في نفس سني، إذ إنه طبقًا للمثل القديم "الأقران يتآلفون بمنتهي السهولة بأقرانهم"، (الطيور على أشكالها تقع)،[١٦] كتلك الأشياء التي اعتاد أن يشكو منها القنصلان السابقان، جايوس ساليناتور وسبوريوس ألبينوس[١٧]، وهما في نفس عمري تقريبًا، وذلك لأنهما في ذلك السن قد حُرما من المتع الجنسية، التي يعتقدان أنه لا حياة بدونها، ولأنهما في ذلك السن شعرا بالازدراء من قِبَل

---

[١٥] المردة (Gigantes / Γίγαντες) في الميثولوجيا الإغريقية والرومانية هو فصيل يتمتع بالقوة الهائلة؛ فبعد أن انتصر جيل الآلهة على جيل التياتن، قرر المردة شن الحرب ضد الآلهة لإسقاطهم من حكم الكون، ولكنهم فشلوا.

[١٦] المثل في اللاتينية: pares cum paribus facillime congregantur, وهناك مثال لاتيني آخر يعطي المعنى نفسه وهو: "Similes cum similibus facillime congregantur." ، وهناك أمثال يونانية قديمة تفيد المعنى نفسه مثل: Όμοιος ομοίω αεί πελάζει أو Αει κολοιός παρά κολοιώ ιζάνει أو Όμοιος ομοίω φίλον.

[١٧] جايوس ليفيوس ساليناتور قنصل عام ١٨٨ ق.م.، سبوريوس بوستوميوس ألبينوس قنصل عام ١٨٦ ق.م.، وكلاهما أصغر سنًا من كاتو.

هؤلاء، الذين اعتادوا توقيرهما؛ لقد بدا لي الرجلان بأنهما لا يلومان الشيء الذي كان ينبغي أن يستحق اللوم. لأن لو أن شكواهما هذه كانت عيب الشيخوخة، فإن ذات العيب سيحل بي وبكل الكبار في السن، وإنني لأعلم من بينهم الكثيرين الذين يقضون شيخوختهم بلا شكوى، هم الذين يقولون إنهم قد تحرروا من أغلال الشهوات الجنسية دون أن يشعروا بأي إزعاج، كما إنهم لم يتم احتقارهم من قبل ذويهم. بيد أنه فيما يتعلق بكل هذه الشكاوي من هذا النوع فإن اللوم يقع على مقومات شخصياتهم وليس على هذه المرحلة من العمر. فالشيوخ المعتدلون الذين لا يتسمون بالفظاظة ولا بالقسوة يمضون شيخوخة يمكن احتمالها، في حين أن الفظاظة والقسوة مزعجة في كل مراحل العمر.

٣. (٨) لايليوس: ما تقوله، يا كاتو، هو عين الصواب. ولكن قد يقول أحدهم إن الشيخوخة تبدو لك من الممكن احتمالها نظرًا لما تتمتع به من ثروة وإمكانات ومنزلتك الرفيعة، بيد أن هذا لا يمكن الحصول عليه من قبل الكثيرين.

كاتو: حقًا، يا لايليوس، إن وجهة نظرك بها قدر من الصواب، ولكنها، مع ذلك، لا تشمل كل وجهات النظر؛ يُروى أن ثيميستوكليس[١٨] اشتبك في مشادة كلامية مع أحد سكان جزيرة سيريفوس،[١٩] وذلك عندما قال له إن شهرته الطاغية ليس مردها هو نفسه، بل بسبب عظمة وطنه؛ فرد عليه قائلًا: " بحق هرقل، لم أكن لأصبح مشهورًا لو كنت من سكان سيريفوس، ولم تكن أنت لتصبح مشهورًا أبدًا حتى لو كنت أثينيًا." وبالطريقة ذاتها يمكن قول هذا الكلام بشأن الشيخوخة؛ لأنه في ظل الفقر المدقع لا يمكن للشيخوخة أن تكون هينة، حتى بالنسبة للرجل الحكيم، وبالنسبة للأحمق أيضًا فإن الشيخوخة تمثل عبئًا ثقيلًا حتى في وجود الثروة الطائلة.

---

[١٨] ثيميستوكليس Θεμιστοκλῆς (٥٢٤-٤٥٩ ق.م.) سياسي وقائد عسكري أثيني، حارب ضد الفرس في معركة ماراثون عام ٤٩٠ ق.م. وفي معركة سلاميس عام ٤٨٠ ق.م. .

[١٩] سيريفوس Seriphos إحدى جزر الكيكلاديس، وهي ترمز إلى ضآلة الحجم وعدم الأهمية.

٣. (٩) لا شك أن أنسب أسلحة الشيخوخة، يا عزيزاي سكيبيو ولايليوس، هي الفنون والممارسة العملية للفضائل، التي لو غرستماها في كل مرحلة من مراحل حياتكما، فإنها حين تعيش عمرًا طويلًا وثريًا بالأحداث تنتج ثمارًا لها العجب، وذلك ليس فقط لأنها لم تخذلك قط، ولا حتى في الفترة الأخيرة من العمر، رغم أن هذا الأمر بحق له أهمية قصوى، بل أيضًا لأن إدراك المرء أنه قد قضى حياته على نحو طيب، وتذكره للكثير من الأحداث الجيدة يعدان أمرين غاية في المتعة.

٤. (١٠) وأنا في سن الشباب كنت معجبًا بشدة بالشيخ كوينتوس ماكسيموس[٢٠] الذي استعاد تارنتوم[٢١]، وكأنه شاب من نفس سني. وذلك لأنه كان من خصال ذلك الرجل أنه يتمتع بصرامة يخفف من حدتها دماثة خلقه، ولم تغير الشيخوخة من طبائعه. ورغم أنني بدأت في التقرب إليه ولم يكن حينها طاعنًا في السن، فإنه كان، على أية حال، قد تقدم في السن بالفعل؛ فقد وُلدت في العام التالي على توليه القنصلية للمرة الأولى، وفي قنصليته الرابعة سافرت معه إلى كابوا[٢٢] كجندي وكنت في صدر شبابي، ثم إلى تارنتوم بعد ذلك بخمس سنوات. وبعد أربع سنوات أصبحت مسئولًا ماليًا (كوايستور)، وقد شغلت هذه الوظيفة إبان قنصلية توديتانوس[٢٣] وكيثيجوس[٢٤]، وعندما صار الرجل شيخًا بالفعل أيد إقرار قانون كينكيوس بشأن

---

[٢٠] كوينتوس فابيوس ماكسيموس فيروكوسوس Quintus Fabius Maximus Verrucosus (٢٨٠-٢٠٣ ق.م.) وقد أُنتخب قنصل خمس مرات (٢٢٣، ٢٢٨، ٢١٥، ٢١٤، ٢٠٩)، وتم اختياره ديكتاتور مرتان ٢٢١ و ٢١٧ وكرقيب عام ٢٣٠. وقد قاد الجيش الروماني في الحرب البونية الثانية ونجح في استعادة الاستيلاء على تارنتوم عام ٢٠٩ ق.م. حيث كانت المدينة قد خانت الرومان عام ٢١٢ ووقفت في صف القرطاجيين ضد الرومان.

[٢١] مدينة ساحلية في إقليم أبوليا، وهي في الأصل مستعمرة يونانية أقامتها إسبرطة في القرن الثامن قبل الميلاد تحت اسم تاراس وأطلق عليها الرومان تارانتوم ثم صارت تارنتوم، ومن أبرز سكان تارنتوم ليفيوس أندرونيكوس الذي منه بدأ الأدب اللاتيني رحلته.

[٢٢] تقع كابوا في إقليم كامبانيا، وهي تبعد ٢٥ كيلو من نابولي.

[٢٣] بوبليوس سمبرونيوس توديتانوس قنصل عام ٢٠٤ ق.م.

[٢٤] ماركوس كورنيليوس كيثيجوس قنصل عام ٢٠٤ ق.م.

الهبات والمكافآت[٢٥]. ورغم أنه قد بلغ من الكبر عتيًا، فإن هذا الرجل كان يخوض الحروب وكأنه في ريعان الشباب، كما أنه أنهك بصموده هانيبال المتمتع بعنفوان الشباب؛ وعن هذا الرجل قال صديقي الشهير إنّيوس هذه الأبيات:

" رجل واحد أعاد إلينا وطننا بتريثه؛

إذ لم يجعل شائعات الغوغاء مقدمة على سلامة (الوطن)[٢٦]؛

وهكذا لمع مجد الرجل الآن وسيلمع أكثر فيما بعد."

٤. (١١) حقًا، يا له من حذر بالغ، ويا لها من مهارة استعاد بهما تارنتوم! لقد سمعته بالفعل عندما رد على ساليناتور، الذي فر إلى القلعة بعد أن فقد السيطرة على المدينة، والذي كان يتباهى بنفسه وقال ما يلي: "لقد استعدت تارنتوم، يا كوينتوس فابيوس، بفضل مجهودي، فرد عليه (كوينتوس) وهو يضحك وقال: "قطعًا، لأنه لم يكن لي أبدًا أن أستردها، إن لم تكن أنت قد ضيعتها."[٢٧]

---

[٢٥] في عام ٢٠٤ ق.م. قدم نقيب العامة ماركوس كينكيوس أليمنتوس مشروع قانون يحظر على المحامين أن يتقاضوا أي أتعاب أو مصاريف من موكليهم، كما يحظر على الأثرياء أن يتلقوا هدايا من الفقراء نظير خدماتهم.

[٢٦] أطلق عليه الرومان لقب كونكتاتور Cunctator أي المتريث، حيث إنه اعتمد على إستراتيجية التريث في مواجهة هانيبال أثناء الحرب البونية الثانية، كما أنه لم يلتفت إلى كلمات الغوغاء التي كانت تنتقد السياسة التي انتهجها أثناء الحرب ضد هانيبال وذلك لأنه كان يقدم سلامة الوطن قبل كل شيء.

[٢٧] كان استرداد تارنتوم بمثابة ضربة قاضية لهانيبال فيما يتعلق بالسيطرة على جنوب إيطاليا. ويبدو أن شيشرون قد جانبه التوفيق في تلك الرواية فيما يتعلق باسم القائد غير الناجح. فقد كان ماركوس ليفيوس ساليناتور Marcus Livius Salinator قائدًا مميزًا؛ في حين أن ماركوس ليفيوس ماكاتوس Marcus Livius Macatus أحد أقارب ساليناتور هو من فقد مدينة تارنتوم، انظر:

.(Liv. AUC 27. 34. 7)

وفي الحقيقة، إن براعته في الحياة العسكرية لا تفوق براعته في الحياة المدنية؛ ففي قنصليته الثانية[٢٨]، ورغم أن زميله في القنصلية سبوريوس كارفيليوس[٢٩] التزم الصمت، فإنه قد عارض بكل ما أوتي من قوة مشروع نقيب العامة جايوس فلامينيوس[٣٠]، الذي يقضي بتقسيم وتوزيع أراضي بيكينوم[٣١] وبلاد الغال بالتساوي على المواطنين، وذلك رغم أنف مجلس الشيوخ؛ ورغم أنه كان يتقلد منصب العراف[٣٢]، فقد كان لديه من الجرأة أن يقول إنه بفضل النبوءات المبشرة بالخير (التي تنبأ بها) قد وقعت تلك الأحداث، التي كان حدوثها من أجل سلامة الوطن، أما الأحداث التي وقعت في غير صالح الوطن، فقد وقعت نتيجة عدم أخذهم بنبوءاته.

٤. (١٢) أعرف الكثير من الخصال الرائعة في هذا الرجل، لكن لا شيء أثار إعجابي أكثر من الطريقة التي تحمل بها موت ابنه، الذي كان رجلًا مرموقًا وقنصل سابق[٣٣]. بين أيدينا الخطبة الجنائزية التي ألقاها (في تلك المناسبة)، التي عندما نقرأها، (نتساءل) من هو الفيلسوف الذي لا يمكننا احتقاره؟ والحق إنه لم يكن رجلًا عظيمًا في النور وفي عيون المواطنين فحسب، بل أيضًا كان مرموقًا أكثر في حياته الخاصة وفي منزله. يا لروعة أحاديثه! ويا لرسوخ مبادئه! كم كان يتميز بسعة الاطلاع على التاريخ القديم! ومعرفته بقوانين العرافة! ويتميز، كما ينبغي للإنسان الروماني، بثقافة واسعة: فكانت ذاكرته تحفظ كل شيء، ليس فقط ما يتعلق بحروبنا الداخلية، بل أيضًا الحروب الخارجية. وهكذا فإنني في ذلك الوقت

---

[٢٨] عام ٢٢٨ ق.م.

[٢٩] قنصل عام ٢٣٥ ق. م.

[٣٠] قدم نقيب العامة جايوس فلامينيوس مشروع قانون إلى مجلس الشيوخ يقضي بتوطين الفلاحين الرومان في الأراضي العامة التي تم الاستيلاء عليها في بيكينوم وبلاد الغال.

[٣١] تقع بيكينوم بين جبال الأبينين والبحر الأدرياتي، وهي مسقط رأس بومبي الأكبر.

[٣٢] تقلد منصب العراف عام ٢٦٥ ق. م.

[٣٣] كوينتوس فابيوس ماكسيموس قنصل عام ٢١٣ ق. م. انظر هامش ٢٠.

كنت أستفيد بشغف من حديثه، وكأني حينها كنت أطلب نبوءات لمعرفة ما سوف يحدث، وبعد وفاته لم يعد عندي من أتعلم منه.

٥. (١٣) إذن، ما هو الغرض من هذا الحديث المطول عن ماكسيموس؟ لأنكما بكل تأكيد تريان أنه من الظلم وصف مثل هذه الشيخوخة بالبائسة. على أية حال، ليس بإمكان الجميع أن يصبحوا مثل سكيبيو أو ماكسيموس، بحيث يتذكروا استيلائهما على المدن، ومعاركهما في البر والبحر، والحروب التي خاضا غمارها، والانتصارات. هناك أيضًا شيخوخة هادئة ولطيفة لحياة يتم عيشها في طمأنينة وسط اهتمامات راقية ورقيقة، ونعرف أن أفلاطون[٣٤] قد عاش مثل هذه الحياة، هو الذي وافته المنية وهو يكتب[٣٥] وذلك في عامه الحادي والثمانين، ومثل شيخوخة إيسوكراتيس[٣٦]، الذي حسب قوله إنه ألف عملًا يحمل عنوان " باناثينايكوس[٣٧]" وهو في عامه الرابع والتسعين، وقد عاش خمس سنوات بعد ذلك؛ وقد عاش معلمه جورجياس[٣٨] من ليونتيني مائة وسبعة أعوام، ولم يتوقف قط عن دراسته وعمله. وعندما كان يُسأل ذلك الرجل لماذا يرغب أن يعيش مثل هذه الحياة بالغة الطول، فإنه كان يجيب: " ليس لدي ما يجعلني ألوم الشيخوخة."

---

[٣٤] أفلاطون Πλάτων (٤٢٧-٣٤٧ ق.م.) مؤسس الأكاديمية.

[٣٥] لا ينبغي أن نأخذ كلمات شيشرون بمعناها الحرفي وهو أن أفلاطون عند وفاته كان ممسكًا بالقلم وهو يكتب أحد مؤلفاته، فشيشرون يقصد أنه ظل يؤلف حتى آخر لحظه في عمره، رغم كبره في السن؛ وقد أخبرنا ديوجينيس لائيرتيس أن أفلاطون قد وافته المنية أثناء حضوره لحفل زفاف

. (Diog. Laert. iii. 2)

[٣٦] إيسوكراتيس Ἰσοκράτης (٤٣٦-٣٣٨ ق.م.) خطيب يوناني، وهو أحد الخطباء الأتيكيين العشرة.

[٣٧] هي آخر خطبة كتبها إيسوقراطيس.

[٣٨] جورجياس Γοργίας (٤٨٣-٣٧٥ ق. م.) ابن مدينة ليونتينوي Λεοντίνοι في صقلية، فيلسوف سوفسطائي وخطيب يوناني، وقد شكل مع بروتاجوراس الطليعة الأولى للسوفسطائيين.

٥. (١٤) إنها إجابة رائعة، وخليقة بأن تصدر من رجل مثقف! لأن الحمقى يعلقون عيوبهم وخطأهم على الشيخوخة؛ لكن إنّيوس الذي أشرت إليه منذ قليل لم يفعل ذلك، حيث يقول:

" إنه على هذا النحو صار مثل جواد السباق الشجاع، الذي كثيرًا ما كان يفوز في الألعاب

الأوليمبية في القفزة الأخيرة، وينشد الآن الراحة بعد أن أُنهكت قواه بفعل الشيخوخة."

إنه يقارن شيخوخته بشيخوخة الجواد الشجاع المنتصر؛ وبالتأكيد يمكنكما تذكره جيدًا[٣٩]؛ وذلك لأنه قد تم انتخاب هذان القنصلان الحاليان، تيتوس فلامينينوس ومانيوس أكيليوس[٤٠]، بعد موته بتسعة عشرة عامًا؛ على كل حال، فإنه قد مات في قنصلية كايبيو والقنصلية الثانية لفيليبوس[٤١]، وحينها كنت في الخامسة والستين من العمر، عندما أيدت قانون فوكونيوس[٤٢] بصوت جهوري ورئتين سليمتين. وفي سن السبعين، لأن إنّيوس قد عاش الكثير من الأعوام، قد عانى على هذا النحو من أمرين يعتقد الناس أنهما أعظم الأعباء، الفقر والشيخوخة، لدرجة أنه كان يبدو لهم وكأنه يتلذذ بهما.

٥. (١٥) والحق، إنني عندما أمعنت في التفكير في هذا الموضوع، وجدت أن هناك أربعة أسباب تجعل لماذا تبدو الشيخوخة مرحلة تعسة: السبب الأول لأنها تبعدنا عن أداء الأنشطة؛ والسبب الثاني لأنها تجعل الجسد أكثر ضعفًا؛ والسبب الثالث

---

[٣٩] عند موت إنيوس كان لايليوس في السابعة عشرة من عمره، وكان سكيبيو في السادسة عشرة.

[٤٠] عام ١٥٠ ق.م.

[٤١] عام ١٦٩ ق.م.

[٤٢] تقدم نقيب العامة فوكونيوس ساكسا بمشروع قانون عام ١٦٩ ق.م. وقد أجيز بالفعل، وهو يقضي بحرمان النساء من الميراث إذا كان للرجل المتوفي ثروة تزيد عن مائة ألف آس.

لأنها تحرمنا من كل المتع الحسية تقريبًا؛ والسبب الرابع لأنها ليست ببعيد عن الموت. دعوني، لو سمحتما لي، نتدبر كل سبب من هذه الأسباب على حدة، وننظر إلى أي مدى هو صحيح.

٦. إن الشيخوخة تبعدنا عن أداء الأنشطة. عن أي أنشطة تقصد؟ أليس عن تلك التي يتطلب أداؤها الشباب والقوة العضلية؟ أليس هناك، إذن، أنشطة مناسبة لكبار السن، تلك التي يمكن أداؤها بالفكر والعقل، رغم أن أجسادهم قد أصابها الوهن؟ إذن، أليس هناك ثمة شيء كان يؤديه كوينتوس ماكسيموس[٤٣]، ولوكيوس باولوس[٤٤]، والدك أنت، يا ولدي[٤٥]، وحمو ابني، أفضل الرجال؟ وماذا عن الشيوخ الآخرين أمثال فابريكيوس[٤٦] وكوريوس[٤٧] وكورونكإنّيوس[٤٨]، ألم يفعلوا أي شيء، عندما دافعوا عن الوطن بحكمتهم وسلطتهم؟

٦. (١٦) لقد حدث أن صار أبيوس كلاوديوس[٤٩] ضريرًا، علاوة على بلوغه سن الشيخوخة؛ على أية حال، عندما كان رأي مجلس الشيوخ يميل إلى السلام وإبرام

---

[٤٣] انظر هامش ٢٠

[٤٤] لوكيوس أيميليوس باولوس (٢٢٩ق.م. – ١٦٠ق.م.) وقد حصل على لقب "قاهر مقدونيا" Macedonicus نظرًا لأنه قضى على مملكة أنتيجونوس في الحرب المقدونية الثالثة.

[٤٥] يقصد سكيبيو أيميليانوس.

[٤٦] فابريكيوس لوسكينوس قنصل أعوام ٢٨٢ و ٢٧٨ و ٢٧٥ ورقيب عام ٢٧٣ ، خاض الحرب ضد بيرهوس، وكان شيشرون يمدحه على الدوام ويعتبره أنموذجًا يُحتذى للفضيلة الرومانية القديمة.

[٤٧] ماريوس أو مانيوس كوريوس دنتاتوس قنصل عام ٢٩٠ و ٢٧٥ ق.م.

[٤٨] تيتوس أو تيبريوس كورونكإنّيوس قنصل عام ٢٨٠ ق.م.

[٤٩] هو كبير أسرة أرستقراطية عريقة في مدينة روما، وقد تقلد منصب الرقيب عام ٣١١ق.م. وفي أثناء تقلده لهذا المنصب شيد الطريق المشهور الذي يحمل اسمه "طريق أبيوس" Via Appia ، حصل على القنصلية مرتان ٣٠٧ و ٢٩٦ق.م. . ورغم أنه قد فقد بصره بعد أن كبر في السن فقد أمر أن يحملوه إلى قاعة مجلس الشيوخ وألقى خطبة يحث فيها الرومان أن يواجهوا بيرهوس عسكريًا.

معاهدة مع بيرهوس[٥٠]، فإنه لم يتردد في أن يقول لهم تلك الكلمات التي أوردها إنّيوس في أشعاره:

" أين ذهبت عقولكم، التي اعتادت في السابق أن تقف صلبة،
أي جنون انحرف بها عن طريقها المعتاد؟"

ومضى في تلاوة القصيدة بأسلوبها الرصين جدًا، لكن القصيدة معروفة لكم جيدًا. كما أن خطبة أبيوس نفسه لا تزال موجودة. ولقد ألقى خطبته هذه بعد سبعة عشرة عامًا من قنصليته الثانية، على الرغم من مرور عشر سنوات تفصل بين القنصليتين، وشغله منصب الرقيب قبل قنصليته الأولى، وبناءً على ذلك يمكننا أن ندرك أنه كان عجوزًا جدًا وقت اندلاع الحرب مع بيرهوس؛ على أية حال، تلك كانت الرواية التي وصلتنا من آبائنا.

٦. (١٧) وعلى ذلك، فإن من ينكرون أن سن الشيخوخة حافل بالنشاط في المشاركة في الشأن العام، ليس لديهم أي برهان على رأيهم، وهم يشبهون من قد يقولون إن ربان السفينة لا يفعل شيئًا مفيدًا في إبحار (السفينة)، لأنه بينما يقوم آخرون بتسلق السواري، ويجري آخرون عبر الممرات، ويقوم آخرون بتشغيل مضخات المياه، فإنه (أي ربان السفينة) يجلس مستريحًا في قمرة السفينة ممسكًا بدفتها؛ لعله لا يفعل الأشياء التي يؤديها الشباب (من طاقم السفينة)، لكنه بحق يفعل أمورًا أعظم وأفضل بكثير. فالأمور العظيمة تُؤدى ليس بالقوة العضلية والرشاقة والسرعة، بل بالحكمة وقوة الشخصية والرأي السديد، تلك الخصال التي عادة لا تفتقر إليها الشيخوخة، بل إنها تزداد مع التقدم في العمر.

٦. (١٨) لكن ربما أبدو لكما، أنا الذي خدمت كجندي وكنقيب عسكري وكضابط وخضت كقنصل غمار أنواع شتى من الحروب، قد أبدو أنني الآن لا أفعل شيئًا، حيث إنني لا أشارك في الحروب. إلا أني أوجه مجلس الشيوخ إلى أي الحروب

---

٥٠ بيرهوس Πύρρος (٣١٩ – ٢٧٢ ق.م.) ملك إبيروس، وقد كان يعد من أقوى خصوم روما.

يجب خوضها وكيفية خوضها؛ ففي الوقت الراهن أعلن على نحو استباقي جدًا الحرب على قرطاجة[٥١] التي تضمر لنا الشر منذ أمدٍ بعيد، ولن يتوقف خوفي منها قبل أن أعرف أنها قد دُمرت تمامًا.

٦. (١٩) وليت الآلهة الخالدة تدخر ذلك الشرف لك أنت، يا سكيبيو، لكي تكمل الإنجاز الذي بدأه جدك، الذي مضى ثلاثة وثلاثون عامًا على وفاته، لكن سوف تحفظ كل الأعوام على الدوام ذكرى ذلك البطل. لقد قضى نحبه في العام السابق على تقلدي منصب الرقيب، وتسعة أعوام بعد حصولي على القنصلية، عندما تم انتخابه قنصل للمرة الثانية أثناء تقلدي لمنصب القنصل. فلو كان قد عاش ليبلغ عامه المائة، هل كان عندئذ سيندم على شيخوخته؟ كلا، لأنه لم يكن ليمضي وقته في الركض، ولا في القفز، ولا في رمي الرماح لمسافة بعيدة، أو المبارزة بالسيوف، بل كان سيمضي وقته في الشورى والتفكير السديد وإبداء الرأي الصائب (في مجلس الشيوخ)، فإن لم تتوفر هذه الخصال في شيوخنا، لم يكن كبار قومنا يطلقوا اسم "مجلس الشيوخ" على أعلى مجالسنا.

٦. (٢٠) عند الإسبرطيين أيضًا، على سبيل المثال، كانوا يطلقون على هؤلاء الذين يتقلدون المناصب العليا لقب الشيوخ، وهم كذلك بالفعل[٥٢]. لكن إن كنتما ترغبان في الاطلاع والاستماع إلى تاريخ الشعوب الأجنبية، فإنكما ستجدان أن أعظم الأمم قد انهارت على يد الشباب، في حين أنه قد تم صونها وإعادة بناءها على يد الشيوخ.

" يا إلهي! كيف فقدتم وطنكم العظيم بمثل هذه السرعة البالغة؟ "

---

[٥١] "يجب تدمير قرطاجة" Carthago delenda est، كانت هذه العبارة هي خاتمة جميع خطب كاتو في مجلس الشيوخ.

[٥٢] لم يكن من بين هؤلاء الأعضاء من يقل عمره عن ستين عامًا.

إذ إن هذا السؤال قد ورد في مسرحية للشاعر نايفيوس[٥٣] تحمل عنوان " الذئب". وأجابوا عليه بأجوبة عديدة ومن بينها هذه الإجابة:

" لقد ظهر (بيننا) خطباء جدد، إنهم شبان حمقى."

إن الاندفاع حقًا هو ما يميز سن الشباب، في حين أن الحكمة تميز الشيخوخة.

٧. (٢١) لكن (يزعم البعض) أن الذاكرة تخبو (بمرور السنين). أعتقد ذلك، إن لم تقم بتنشيطها، أو أيضًا إن كنت بطبيعتك شخصًا غبيًا إلى حدٍ ما. كان ثميستوكليس[٥٤] يحفظ عن ظهر قلب كل أسماء مواطني (أثينا)؛ فهل تعتقدان، إذن، أنه عندما تقدم في العمر، اعتاد أن يحيي ليسيماخوس، في حين أن الشخص الذي يحييه كان أريستيديس[٥٥]؟ في الحقيقة إنني أعرف ليس فقط الجيل الجديد، بل أيضًا أتذكر آبائهم وأجدادهم، ولكيلا أفقد ذكراهم، فإنني لا أخشى من فقدان ذاكرتي عند قراءة نقوش قبورهم[٥٦] كما يزعم الناس؛ لأنه بقراءة هذه النقوش نفسها أعيد إلى ذاكرتي ذكريات الموتى. والحق إنني لم أسمع قط عن أي شيخ نسي في أي مكان خبأ أمواله. فهم يتذكرون كل ما يهمهم، مثل مواعيد سداد الكفالة، ومن هم الدائنين له، ومن هم المدينين له.

٧. (٢٢) وماذا عن المسنين من رجال القانون (المحامين)، والكهنة، والعرافين، والفلاسفة؟ كم من الأشياء الكثيرة يتذكرونها! يحتفظ المسنون بقدراتهم الذهنية، فقط بشرط أن يبقى حماسهم نحو المعرفة ونشاطهم على حاله، وهذا الحال لا

---

[٥٣] عاش نايفيوس من ٢٦٤ إلى ١٩٤ ق.م.، وأهم مؤلفاته ملحمة الحرب البونية التي كتبها في الوزن الساتورني وتناول فيها أحداث الحرب البونية الأولى؛ كما ألف العديد من المسرحيات التراجيدية والكوميدية (سواء الباليانا أو البرايتكستا).

[٥٤] ثميستوكليس (٥٢٤ – ٤٥٩ ق.م.) قائد عسكري أثيني، أشتهر بقوة الذاكرة. انظر هامش ١٨.

[٥٥] أريستيديس هو ابن ليسيماخوس، وقد كان من ألد أعداء ثميستوكليس، وقد أورد شيشرون هذه الإشارة من باب التهكم.

[٥٦] من الواضح أن الإشارة هنا إلى خرافة شعبية وليس لها أي مصدر آخر.

ينطبق فقط على المشاهير من الرجال وذوي المناصب الرفيعة، بل أيضًا على الرجال في حياتهم الشخصية وأنشطتهم الآمنة. ظل سوفوكليس يؤلف مسرحيات تراجيدية إلى أن بلغ مرحلة متقدمة جدًا من الشيخوخة[٥٧]؛ وعندما بدا أنه يهمل في إدارة شئون أسرته بسبب اهتمامه بعمله الأدبي، فقد تم استدعاءه إلى ساحة القضاء من قبل أبناءه من أجل جعل القضاة يقضون بحرمانه من إدارة ممتلكات العائلة على أساس أنه يتصرف بحماقة على هذا النحو، وذلك طبقًا لقانون مشابه لقانون لدينا يقضي بعزل كبير العائلة إذا أساء التصرف في ممتلكات العائلة. عندئذ قيل إن الشيخ قرأ على القضاة تلك المسرحية التي كانت بين يديه والتي انتهى منها لتوه، وهي أوديب في كولونوس، ثم سألهم: هل تبدو هذه القصيدة لرجل مختل، وبمجرد تلاوته لهذه المسرحية حصل على البراءة بحكم القضاة.

٧. (٢٣) وعلى ذلك، هل (تعتقد) أن الشيخوخة أجبرت هذا الرجل أن يتخلى عن اهتماماته، وهل أجبرت (من قبل) هوميروس وهسيودوس[٥٨] وسيمونيديس[٥٩] وستيسيخوروس[٦٠]، أم فعلت ذلك مع هؤلاء الذين ذكرتهم من قبل إيسوكراتيس[٦١] وجورجياس[٦٢]، أم مع رواد الفلاسفة فيثاغورس[٦٣] وديموقريطيس[٦٤]، أم مع

---

[٥٧] كان عمره في هذا الوقت يناهز التسعين عامًا تقريبًا.

[٥٨] هسيودوس Ἡσίοδος شاعر تعليمي عاش ما بين ٧٥٠ و ٦٥٠ ق.م.، وأشهر مؤلفاته "أنساب الآلهة" و "الأعمال والأيام".

[٥٩] سيمونيديس من كيوس Σιμωνίδης ὁ Κεῖος ، أحد الشعراء الغنائيين الإغريق العظام، عاش من ٥٥٦ إلى ٤٦٩ ق.م..

[٦٠] ستيسيخوروس من هيمرا في صقلية Στησίχορος ، هو شاعر غنائي أيضًا، عاش من ٦٣٠ إلى ٥٥٦ ق.م.،

[٦١] انظر هامش ٣٦.

[٦٢] انظر هامش ٣٨.

[٦٣] فيثاغورس من ساموس Πυθαγόρας ὁ Σάμιος ، تاريخ ميلاده ووفاته غير معروفين على وجه الدقة وربما هو من ٥٧٠ إلى ٤٩٥ ق.م. عاش في المستعمرات اليونانية في جنوب إيطاليا، وأسس فيها مدرسته الفلسفية، التي استمرت بعد وفاته بعض القرون.

أفلاطون وإكسينوقراطيس(٦٥)، أم مع من جاء بعد ذلك زينون(٦٦) وكليانثيس(٦٧)، أم مع ديوجينيس الرواقي(٦٨)، ذلك الرجل الذي رأيتماه في روما؟ ألم يظل النشاط موجودًا في حياة كل فرد منهم في كل أوجه مجالات اهتماماتهم؟

٧. (٢٤) فلنواصل إذن موضوعنا، لكي نترك الحديث عن (أصحاب) تلك الدراسات السامية، فإنه باستطاعتي ذكر أسماء مزارعين رومان من الريف السابيني، إنهم جيراني وأصدقائي، فقد كانوا تقريبًا لا يتغيبون أبدًا عن الحقل أثناء أداء أعمال الزراعة الرئيسية، فلا يتغيبون عن بذر البذور، ولا الحصاد، ولا تخزين المحاصيل. وعلى الرغم من أن هذا العمل الذي يقومون به ليس بالمثير للدهشة، لأنه لا يوجد شخص بالغ الكبر في السن لدرجة أنه لا يعتقد أن بمقدوره العيش لعام آخر، فإن هؤلاء المزارعين أنفسهم يكدحون في هذه الأعمال التي يعرفون أنها لن تعود عليهم بأي ربح على الأطلاق:

" إنه يزرع أشجار، لكي يستفيد منها الآخرون من جيل آخر،"

وطبقًا لما قاله شاعرنا (كايكيليوس) ستاتيوس(٦٩) في مسرحية تحمل عنوان " الرفاق الشباب".

---

٦٤ ديموقريطيس من أبديرا Δημόκριτος أحد رواد الفلسفة الذرية، عاش بالتقريب من ٤٦٠ إلى ٣٦١ ق.م..

٦٥ إكسينوقراطيس Ξενοκράτης عاش بالتقريب من ٣٩٦ إلى ٣١٤ ق.م.، وقد رأس الأكاديمية بعد مؤسسها أفلاطون وخلفه سبيوسيبوس.

٦٦ زينون من كيتيوم بجزيرة قبرص Ζήνων ὁ Κιτιεύς ، مؤسس الفلسفة الرواقية، وُلد عام ٣٥٧ تقريبًا، وقيل إنه قد مات وعمره ثمانية وتسعين عامًا.

٦٧ كليانثيس Κλεάνθης (٣٣٠ – ٢٣٠ ق.م.) خلف زينون في رئاسة المدرسة الرواقية، قيل إنه قد مات وعمره التاسعة والتسعين.

٦٨ ديوجينيس البابلي Διογένης Βαβυλώνιος عاش تقريبًا في الفترة من ٢٣٠ إلى ١٥٠ أو ١٤٠ ق.م.، وقد ترأس المدرسة الرواقية في أثينا، وكان أحد الفلاسفة الثلاثة الذين زاروا روما عام ١٥٥ ق.م.

٧. (٢٥) والحق أن الفلاح، رغم أنه قد صار شيخًا، لا يتردد في أن يجيب على من يسأله لمن يزرع: " (أزرع) للآلهة الخالدة، التي شاءت ليس فقط أن أرث هذه الأشياء من أجدادي، بل أيضًا أن أورثها لذريتي."

٨. وكايكيليوس ذاته الذي كتب عن الشيخ الذي يزرع من أجل جيل آخر كتب فقرة أفضل من تلك يقول فيها:

" بحق بولّوكس[٧٠]، أيتها الشيخوخة، إن لم تجلبي معكِ أي من المتاعب الأخرى،
عندما تحلين، فإن حسبك هذا الأمر فقط،
لأن من يعش طويلًا يرى الكثير من الأشياء التي لم يكن يتمنى (أن يراها)."

ولعله (يرى) أيضًا الكثير من الأشياء التي يتمنى (أن يراها)؛ وبالنسبة لرؤية المرء لأشياء لا يتمنى رؤيتها، فإن ذلك الأمر يحدث في سن الشباب أيضًا. والحق إن أسوأ ما كتبه كايكيليوس ذاته ما يلي:

" إذن، أعتقد حقًا أن أسوأ ما في الشيخوخة
هو أن يشعر المرء في هذه المرحلة السنية أنه مكروه من الآخرين "

فحري به أن يكون مقبولًا منهم من أن يكون مكروهًا.

٨. (٢٦) لأنه كما يستمتع الحكماء من كبار السن بصحبة الشباب المتمتعين بالفطرة بالأخلاق الحميدة، وعبء الشيخوخة يصير أخف وطأة لدى هؤلاء الذين يحظون بالرعاية والتوقير من قبل الشباب، وهكذا فإن الشباب يبتهجون بتلقي إرشادات الشيوخ التي تقودهم إلى السير في طريق الفضائل؛ وإنني أظن أن صحبتي لكما ممتعة على نحو ليس بأقل من صحبتكما لي. لكنكما ترون كيف أن سن

---

[٦٩] كايكيليوس ستاتيوس (٢٢٠ – ١٦٦ ق.م.) شاعر كوميدي روماني، كان يستعير أغلب مسرحياته من مناندروس.

[٧٠] المصطلح هو اختصار للمنادى **edepol** أي "أيها الإله بولّوكس"، وهو قسم شائع في الكوميديا الرومانية "بحق الإله بولّوكس". وبولّوكس هو الأخ التوءم لكاستور، ابنا زيوس (جوبيتر)، وأهم أعمالهما البطولية مشاركتهما في رحلة السفينة أرجو.

الشيخوخة ليست فقط بعيدة كل البعد عن الوهن والكسل، بل إنها أيضًا متخمة بالأعمال، فهناك دائمًا ثمة شيء تعمله وتسعى لتحقيقه، وهذا العمل في الحقيقة يكون من نفس جنس الاهتمامات التي كانت تشغله في حياته السابقة (في فترة الشباب). ماذا (نقول) عن أولئك الذين يضيفون (كل يوم) معلومة جديدة إلى مخزون معرفتهم، وخير مثال لهم سولون[٧١]، الذي نراه يتباهى في أشعاره ويقول إنه عندما صار شيخًا كان يضيف كل يوم معلومة جديدة إلى معلوماته. وقد فعلت أنا نفسي الشيء نفسه، فقد درست الأدب اليوناني في شيخوختي، وعكفتُ على دراستي بشغف بالغ، كما لو كنت أروي ظمئًا طويلًا، حتى صارت معروفة لي، وكما ترون قمت بضرب الأمثال بها الآن. وعندما سمعت أن سقراط[٧٢] تعلم العزف على القيثارة، لأن القدماء كانوا يتعلمون العزف على القيثارة، وددت أن أفعل ذلك الشيء أنا الآخر، بيد أني كرست كل جهدي بالطبع لدراسة الأدب.

٩. (٢٧) في الحقيقة لم أعد أرغب الآن في قوة الشباب على نحو أكثر مما كنت أرغب وأنا شاب في أن أمتلك قوة ثور أو فيل، وقد كان ذلك هو العنصر الثاني من عيوب الشيخوخة. وحقيقة الأمر هي: أنه من المناسب للمرء أن يستخدم قوته، وأن يفعل الشيء الذي يتناسب مع قواه العضلية أن يفعله. لأنه ماذا يمكن أن يكون مثيرًا للشفقة أكثر من قول ميلو من كروتونا[٧٣]؟ الذي عندما صار بالفعل شيخًا ونظر إلى نفسه وإلى الرياضيين وهم يتدربون في مضمار السباق، قيل إنه نظر إلى ساعديه وقال وهو يذرف الدمع: " بلى، لقد صار (ساعدايا) حقًا الآن ميتان." لكنهما ليسا ميتان إلى هذا الحد أكثر منك أنت نفسك أيها التافه، فإنك لم تصبح

---

[٧١] سولون Σόλων (٦٣٠ – ٥٦٠ ق.م. تقريبًا) مشرع أثيني شهير، وشاعر غنائي.

[٧٢] ربما استقى شيشرون هذه المعلومة عن سقراط من محاورة أفلاطون Euthydemus 272 C ، حيث يذكر أن كونّوس هو معلم الموسيقى لسقراط.

[٧٣]. هو أشهر الرياضيين الإغريق، وقد عاش في نهاية القرن السادس قبل الميلاد، وقد تغنى بانتصاراته الشاعر سيمونيديس. فاز ست مرات في المصارعة في الألعاب الأوليمبية، وست مرات في مِهْرَجان الألعاب البيثية.

مشهورًا لذاتك، بل بفضل قوة رئتيك وساعديك. سكستوس أيليوس[٧٤] وتيتوس كورونكإنّيوس[٧٥] في العصر القديم وبوبليوس كراسوس[٧٦] بعد ذلك يقدمون نموذجًا مختلفًا (عن ميلو)، فبواسطتهم كانت تُكتب الاستشارات القانونية للمواطنين، وقد ظلوا يقدمون مهاراتهم القانونية حتى النفس الأخير (من عمرهم).

٩. (٢٨) وإنني أخشى أن يُصاب الخطيب بالوهن بسبب تقدمه في السن، وذلك لأن نجاحه لا يتوقف على موهبته فقط بل على قوة رئتيه وقوته البدنية أيضًا. (ومع ذلك) يصبح الصوت رخيمًا تمامًا، ولا أدري بأي حال يحدث ذلك في سن الشيخوخة، وتلك الميزة لم أفقدها أنا إلى الآن حقًا، وأنتما تريان كم بلغت من العمر. لكن على أية حال فإن الأسلوب المناسب للشيخ هو المتسم بالهدوء واللطف، وفي أغلب الأحوال فإن الخطبة الرصينة واللطيفة للخطيب المسن تحظى بجذب آذان المستمعين إليها، فإن لم يكن بمقدور المرء أن يلقي تلك الخطبة بنفسه، فإن باستطاعته، على أية حال، أن يسدي النصح (للشباب أمثال) سكيبيو ولايليوس. فماذا يمكن أن يكون أكثر إمتاعًا من بلوغ شيخوخة يحيط بها حماسة الشباب.

٩. (٢٩) ألا ينبغي علينا حقًا أن نسلم أن للشيخوخة تلك القوة التي تؤهلها لتعليم الشباب وتدريبهم وإعدادهم لأداء كل مهام العمل؟ فهل هناك حقًا عمل يمكن أن يكون أكثر سموًا من ذلك العمل؟ والحق لقد كان يبدو لي أن جنايوس وبوبليوس

---

[٧٤] سكستوس أيليوس قنصل عام ١٩٨ ق.م. ورقيب عام ١٩٤ ق.م. وهو من أشهر من كتبوا القانون الروماني.

[٧٥] انظر هامش ٤٨.

[٧٦] قنصل عام ٢٠٥ ق.م. وتولى منصب الكاهن الأعظم من عام ٢١٢ إلى أن مات عام ١٨٣ ق.م.، وكان محاميًا مرموقًا.

سكيبيو[٧٧] وجديك الاثنين لوكيوس أيميليوس[٧٨] وبوبليوس أفريكانوس[٧٩] كانوا محظوظين بمرافقة لفيف من الشبان النبلاء، فلا ينبغي أن نعتقد أن أي من معلمي الفنون الجميلة غير سعيد، حتى لو وهنت قواهم وضعفت. على الرغم من أن وهن القوة هذا نفسه يكون سببه، في أغلب الأحوال، رذائل فترة الشباب لا إلى فترة الشيخوخة؛ لأن الشباب الماجن والمستهتر يقدم إلى الشيخوخة جسدًا واهنًا.

٩. (٣٠) فقورش[٨٠]، على سبيل المثال، كما ورد عند إكسينوفون[٨١]، في الحوار الذي أجراه وهو على فراش الموت، وكان قد بلغ من الكبر عتيًا، قال إنه لم يشعر قط أنه قد قضى شيخوخته على نحو أكثر ضعفًا مما كان عليه في شبابه. وأنا نفسي أتذكر في صباي لوكيوس ميتيلّوس[٨٢] الذي عندما تم اختياره الكاهن الأعظم، وذلك بعد مرور أربع سنوات من قنصليته الثانية، ظل في ذلك المنصب الديني الرفيع لمدة اثنين وعشرين عامًا، (وأتذكر) أنه ظل يتمتع بقواه البدنية في حالة جيدة جدًا حتى الفترة الأخيرة من عمره لدرجة أنه لم يشعر أن شبابه قد ولى. وإنني لا أحتاج إلى أن أتحدث عن نفسي (في هذا الصدد)، على الرغم من أن هذا الأمر بالفعل من شيم كبار السن، ويحق لم هو في مثل سني أن يفعله.

---

[٧٧] جنايوس كورنيليوس سكيبيو كالفوس قنصل عام ٢٥٩ ق.م.. وبوبليوس كورنيليوس سكيبيو قنصل عام ٢١٨ ق.م..

[٧٨] انظر هامش ٤٤.

[٧٩] بوبليوس كورنيليوس سكيبيو أفريكانوس قنصل عام ٢٠٥ و ١٩٤ ق.م..

[٨٠] قورش الأكبر (٦٠٠ – ٥٣٠ ق.م. تقريبًا) ملك الفرس ومؤسس الإمبراطورية الأرخيمينية، أي الإمبراطورية الفارسية الأولى.

[٨١] إكسينوفون (٤٣٠ – ٣٥٥ ق.م.) Ξενοφῶν قائد عسكري ومفكر ومؤرخ أثيني.

[٨٢] قنصل عام ٢٥١ ق.م.، وقد انتصر على القرطاجيين في باليرمو، وحصل على القنصلية مرة أخرى عام ٢٤٧ ق.م.

١٠. (٣١) ألا ترون عند هوميروس كيف كان نستور[٨٣] كثيرًا ما يتحدث عن مميزاته؟ لأنه قد عاصر الجيل الثالث من البشر، ولم يكن يخشى أن يبدو إلى حد كبير غريب الأطوار أو ثرثارً عند قوله الحق عن نفسه. لأنه، كما يقول هوميروس: " كان الحديث يتدفق من لسانه أحلى من العسل"؛ وحلاوة الحديث هذه لم تكن تحتاج لأية قوة جسدية. ومع ذلك لم يتمنَّ قط قائد بلاد الإغريق الشهير (أجاممنون) أن يمتلك عشرة رجال أمثال أياكس[٨٤]، بل أمثال نستور، لأنه لم يشك أنه في حالة حصوله عليهم، أن طروادة سوف تُدمر في وقت وجيز.

١٠. (٣٢) لكن دعوني أعود إلى الحديث عن نفسي. فقد بلغت من العمر أربعة وثمانين عامًا، وإنني أتمنى أن يكون باستطاعتي أن أفتخر بالشيء ذاته الذي افتخر به قورش، بيد أني، على أية حال، أستطيع أن أقول التالي: في الحقيقة إنني لم أعد أتمتع الآن بتلك القوة البدنية التي كنت أتمتع بها سواء عندما كنت جنديًا أثناء الحرب البونية، أو عندما كنت مسئولًا ماليًا في الحرب ذاتها، أو عندما كنت قنصل في إسبانيا، أو بعد ذلك بأربع سنوات عندما حاربت في ثيرموبيلاي[٨٥]، بصفتي نقيبًا عسكريًا، تحت قيادة القنصل مإنّيوس جالابريو[٨٦]؛ لكن، على أية حال، وكما ترون بوضوح أنتما الاثنان، فإن الشيخوخة لم تضعفني ولم تحطمني؛ ولم يفتقد قوتي مجلس الشيوخ، ولا منصة الخطابة في الجمعية الشعبية، ولا أصدقائي، ولا أتباعي، ولا ضيوفي. وذلك لأنني لم أوافق قط على المثل القديم الذي

---

[٨٣] نستور Νέστωρ ملك بيلوس في الأساطير، وقد منحه الإله أبولّون طول العمر فعاصر ثلاثة أجيال. وهنا يشير شيشرون إلى نص الإلياذة "الكتاب الأول، البيت ٢٦٠ وما يليه". وكان مشهودًا له بالفصاحة وحسن البيان، وكان دائم النصح للمحاربين الشبان، وحاول التوفيق بين أجاممنون وأخيلّيس.

[٨٤] أياكس Αἴας بن تيلامون، من أبرز المقاتلين الإغريق، خاصة بعد انسحاب أخيلّيس من القتال.

[٨٥] ثيرموبيلاي Θερμοπύλαι مضيق بحري في بلاد اليونان.

[٨٦] قنصل عام ١٩١ ق.م. وقائد الجيش الروماني ضد الملك أنطيوخوس.

يلقى استحسان (الناس)، والذي ينصح بأن تصبح شيخًا مبكرًا، إذا رغبت أن تكون شيخًا لأمد طويل. أما أنا فإنني أفضل أن تكون شيخوختي ليست طويلة الأمد على أن أصبح شيخًا قبل أواني. وعلى ذلك، فإن أي شخص يرغب في مقابلتي إلى الآن، أرحب بلقائه.

١٠. (٣٣) لكنني أتمتع بقوة بدنية أقل من كل منكما. كما أنكما، في الحقيقة، لا تملكان قوة قائد المئة تيتوس بونتيوس[٨٧]؛ هل يعد هو، لهذا السبب، أفضل منكما؟ دع فقط التحكم في القوة يكون موجودًا، ودع كل إنسان يبذل من الجهد ما يكون مناسبًا لما لديه من إمكانيات، وذلك كي لا يصبح ذلك الشخص أسيرًا لرغبة شديدة لامتلاك القوة. يُروى أن ميلو[٨٨] كان يسير في مضمار الملعب بأوليمبيا، وذلك لأنه كان يحمل ثورًا فوق كتفيه؛ وعلى ذلك، أيهما تفضل أن تحصل لنفسك القوة العضلية للجسد (كقوة ميلو) أم القوة العقلية لفيثاغورس؟ وخلاصة القول، استمتع بتلك النعمة، طالما هي موجودة لديك، (لكن) عندما تزول، لا تتمنى عودتها مرة أخرى؛ إلا إذا كان ينبغي على الشباب بالصدفة أن يتمنوا عودة فترة الطفولة، وبعد تقدمهم قليلًا في السن تمنوا العودة لسن الشباب. هناك ثمة درب ثابت للعمر، وهناك طريق واحد للطبيعة وذلك الطريق بسيط (لا إياب له)، فكل فترة من فترات العمر محدد لها خصائها الخاصة، وعلى ذلك هناك الضَّعْف عند الغلمان، والعنف لدى الشباب، والرزانة في منتصف العمر، والنضج في الشيخوخة، فلكل مرحلة سنية ثمارها الطبيعية، التي ينبغي حصادها في موسمها.

١١. (٣٤) وأعتقد، يا سكيبيو، أنك قد سمعت عما كان يفعله ماسينيسّا[٨٩]، مضيف جدك، وقد بلغ من العمر آنذاك سن التسعين: فعندما يقطع رحلة سيرًا على الأقدام، كان لا يمتطي صهوة جواده على الإطلاق؛ لكن عندما يمتطي صهوة

---

[٨٧] يتمتع قادة المئة في الغالب ببنيان قوي.

[٨٨] انظر هامش ٧٣.

[٨٩] ملك نوميديا الذي صار حليفًا لروما في عام ٢٠٦ ق.م. وقد ظل وفيًا لروما حتى وفاته، وقد استضاف سكيبيو الأصغر في مملكته أثناء الحرب البونية الأخيرة.

الجواد، لم يكن ينزل من فوقه؛ ولم تكن تدفعه الأمطار أو البرد القارس إلى أن يغطي رأسه؛ وكان يتمتع بموفور صحة الجسد، وعلى ذلك كان يؤدي كل مهام الملك وواجباته. وبناء على ذلك فإن التدريب والاعتدال بمقدورهما الحفاظ على قدر من القوة الفطرية للمرء حتى في سن الشيخوخة.

هب أن الشيخوخة تفتقر إلى القوة البدينة، فالقوة البدنية، في الحقيقة، غير مطلوبة في سن الشيخوخة. ومن ثم فإن من هم في مثل سني طبقًا للقوانين والأعراف معفيين من أداء تلك الواجبات العامة التي لا يمكن أداءها بدون القوة البدنية.[٩٠] وعلى ذلك فإننا، حقًا، غير مجبرين ليس فقط على أداء ما لا نستطيع أداءه، بل أيضًا ما نستطيع أداءه.

١١. (٣٥) لكن العديد (من كبار السن) يعانون من وهن بالغ، لدرجة أنهم لا يستطيعون أداء أي مهام وظيفية أو أي من واجبات الحياة (اليومية) على الإطلاق. بيد أن ذلك العيب بحق لا يتعلق بالشيخوخة وحدها، بل يتعلق بضعف الصحة بشكل عام. فكم كان ابن بوبليوس أفريكانوس ضعيف البنيان، ذلك الرجل الذي تبناك، فكم كان هزيلًا أو بالأحرى بلا صحة على الإطلاق! لو أنه لم يكن على هذا الحال، لبرز ذلك الرجل كنجم للوطن[٩١]؛ لأن علمه الأكثر غزارة كان سيضيف الكثير إلى عظمة روح والده. فما العجب، إذن، أن يحدث ذلك بين كبار السن، لو أنهم كانوا في بعض الأحيان ضعاف البنيان، عندما حتى الشباب لا يستطيعون الفرار من المصير نفسه؟ ينبغي علينا، يا لايليوس وسكيبيو، أن نقاوم الشيخوخة،

---

٩٠. بموجب القانون لا يُطلب ممن يزيد عمره عن ستة وأربعين عامًا أداء الخدمة العسكرية، كما أن أعضاء مجلس الشيوخ الذين يتجاوزون الستين عامًا لا يتم استدعائهم إلى حضور جلسات المجلس، وإنما يخضع حضورهم إلى رغبتهم الشخصية.

٩١ وصفه لابن بوبليوس أفريكانوس بأنه "نجم الوطن" ;lumen civitatis يشبه وصف شيشرون لأبيقور بالوصف نفسه: Cic. De Fin. 2, 70 *Epicurus, hoc enim vestrum lumen est,*

كما ينبغي أن نعوض ما بها من عيوب بالاجتهاد، فعلينا أن نناضل ضد الشيخوخة مثلما نناضل ضد المرض، وكذلك ينبغي امتلاك نظام للحفاظ على الصحة؛

١١. (٣٦) فينبغي ممارسة تمارين معتدلة، وينبغي تناول ما يكفي من الطعام والشراب لتجديد قوتنا دون أن نثقل عليه. ولا ينبغي أن ندعم قوة الجسد فقط، بل ندعم على نحو أكبر بكثير قوى العقل والروح؛ وذلك لأنهما أيضًا يخبوان بالشيخوخة مثل المصباح إذا لم تصب الزيت فيه. والحق إن الأجساد تصاب بالإرهاق جراء التدريبات البدنية، في حين أن العقول تصير نشطة من خلال النشاط الذهني. لأن ما كان يعنيه كايكيليوس[٩٢] في قوله: "شيوخ الكوميديا الحمقى" كان يقصد به هؤلاء السذج كثيري النسيان البلهاء، وتلك الرذائل لا (ينبغي) أن تُنسب إلى الشيخوخة بشكل مطلق، بل إلى الشيخوخة التي تتسم بالكسل والخمول وكثرة النوم. إن الاستهتار والفسق هي رذائل تعزو إلى الشباب أكثر من كبار السن، ومع ذلك فليس جميع الشباب يتسمون بذلك، وإنما غير الصالحين منهم، وهكذا فإن تلك حماقة كبر السن تلك، التي عادةً ما تسمى خرف الشيخوخة، لا يتصف بها كل الشيوخ، وإنما الحمقى منهم فقط.

١١. (٣٧) كان أبيوس[٩٣] ضريرًا وشيخًا كبيرًا، ومع ذلك كان يدير شئون أربعة أبناء أشداء، وخمس بنات، ومنزل كبير للغاية، والكثير من الأتباع؛ لأنه كان يمتلك عقلًا حاضرًا مثل القوس مشدود الوتر، ولم يدع فتور الهمة يجعله يستسلم للشيخوخة. فقد ظل محافظًا ليس فقط على سلطته الروحية، بل أيضًا على نفوذه على ذويه: فقد كان العبيد يهابونه، وأولاده يوقرونه، ويحمل له الجميع معزة؛ ففي ذلك المنزل تجد سنة السلف وانضباطهم في أبهى صورة.

١١. (٣٨) لأن الشيخوخة، حقًا، تحظى بالتوقير إذا دافعت عن نفسها، وحافظت على حقوقها، ولم تتنازل لأي أحد عن سلطتها (الأبوية)، وإذا حافظت على الدوام

---

[٩٢] انظر هامش ٦٩.

[٩٣] انظر هامش ٤٩.

على سيادتها بين ذويها حتى النفس الأخير، ومثلما أنني أزكي الشاب الذي يحمل بين جنباته سمت الشيوخ، فإنني على هذا النحو أزكي الشيخ الذي يحمل بين جنباته سمت الشباب، لأن من يسلك هذا المسلك سيكون بمقدوره أن يصبح شيخًا بجسده، لكنه لن يصبح أبدًا شيخًا بروحه.

بين يداي (الآن) الكتاب السابع من عملي "الأصول"؛ (وفيه) أقوم بجمع كافة أحداث تاريخنا القديم[٩٤]. وفي الوقت الراهن أقوم بتنقيح خطبي بعناية بالغة، تلك التي دافعت فيها في قضايا شهيرة؛ وأقوم بالكتابة في قواعد عرافة والكهانة والقانون المدني؛ كما أمضي الكثير من وقتي في دراسة الأدب اليوناني؛ وعلى غرار الفيثاغوريين، فإنني من أجل تنشيط ذاكرتي أحاول تذكر في المساء كل ما قلته أو سمعته أو فعلته بالنهار. تلك هي تدريبات الذهن، تلك هي ساحات تدريب العقل؛ ورغم أني أتصبب عرقًا وأشعر بالإجهاد عند ممارسة هذه التدريبات، فإني لا أكاد أشعر بفقدان قواي البدنية. فأنا أقف إلى جوار أصدقائي (في ساحات القضاء)، وأواظب على حضور جلسات مجلس الشيوخ، علاوة على ذلك فإني كثيرًا ما أطرح موضوعات للمناقشة أعددتها بعد أن أكون قد فكرت فيها مليًا لوقت طويل، وأدافع عنها بقوة العقل وليس بقوة الجسد. فلو كنت غير قادر على أداء هذه الممارسات، فإن أريكتي، على أية حال، تدخل البهجة عليَّ (بالاستلقاء عليها)، حيث أفكر في تلك الأشياء ذاتها التي لا أستطيع القيام بها الآن؛ لكن ما يجعلني قادرًا على القيام بهذا الشيء هو أسلوب حياتي الماضية. لأن المرء الذي يقضي دائمًا حياته وسط

---

[٩٤] كتب كاتو عمله التاريخي " الأصول " Origines في سبعة كتب، حيث تحدث عن أصول ونشأة المدن الإيطالية. يتناول الكتاب الأول تأسيس مدينة روما على يد رومولوس، وملوك روما السبعة حتى طرد آخر ملوكها. ويتناول الكتابان الثاني والثالث أصول المدن الإيطالية الرئيسية. وفى الكتاب الرابع عالج موضوع الحرب البونية الأولى. وفى الكتاب الخامس تحدث عن الحرب البونية الثانية. والكتابان السادس والسابع يتناولان الحروب الأخرى التي خاضتها الجمهورية الرومانية حتى عام ١٤٩ق.م.

تلك الدراسات والأعمال (مثلي) لا يشعر عندما تزحف الشيخوخة نحوه. وهكذا فإن عمره يكبر تدريجيًا ويصير شيخًا دون أن يشعر، فهو لا ينكسر على نحو مفاجئ، بل تخبو جذوته بمرور زمن طويل.

١٢. (٣٩) جاء الدور (للرد) على الاتهام الثالث الموجه ضد الشيخوخة، وهو كما يقول الناس إنها تفتقر إلى المتع الحسية. يا أيتها النعمة الرائعة لهذه المرحلة من العمر، إن كنتِ تأخذين منا ذلك الشيء الذي يعد أكبر الرذائل في سن الشباب! اسمعا إذن، أيها الشابان النبيلان! إلى الحديث القديم لأرخيتاس من تارنتوم[٩٥]، ذلك الرجل العظيم واللامع وسط صفوة الناس، الذي نُقل إليَّ عندما كنت شابًا في تارنتوم مع كوينتوس ماكسيموس[٩٦]. فقد اعتاد أن يقول: " ليس هناك بلية قدمتها الطبيعة للبشر أكبر من شهوة الجسد، فمن خلال هذه الشهوة يتم إثارة الرغبات العارمة على نحو طائش وبدون قدرة على التحكم فيها من أجل تحقيقها.

١٢.(٤٠) فمن هنا تنشأ خيانات الوطن، ومن هنا تنشأ اضطرابات الدول، ومن هنا تنشأ المحادثات السرية مع العدو؛ وخلاصة القول فإنه لا تُرتكب أية جريمة، ولا يحدث أي فعل مشين إلا وكانت الرغبة في المتعة تدفع إلى ارتكابه؛ والحق أن الاغتصاب والزنا وكل ما هو مشين من هذا القبيل يتم إثارتها بإغراءات الشهوة وليس أي شيء آخر؛ وحيث إن الطبيعة، أو إله ما آخر، لم تمنح الإنسان أي شيء أفضل من العقل، فإنه لا يوجد عدوًا لدودًا لهذه الهبة والعطية الإلهية أكثر من الشهوة.

---

[٩٥] أرخيتاس Ἀρχύτας (٤٣٥ أو ٤١٠ – ٣٦٠ أو ٣٥٠ ق.م. تقريبًا)، وُلد في مستعمرة تارنتوم اليونانية في جنوب إيطاليا، وكان معاصرًا وصديقًا لأفلاطون، كما كان من أتباع الفلسفة الفيثاغورية، وهو أيضًا فيلسوف وعالم رياضيات وعالم فلك ورجل دولة وقائد عسكري. وقد خصص الشاعر هوراتيوس القصيدة الغنائية الثامنة والعشرين من الكتاب الأول للحديث عن أرخيتاس.

[٩٦] انظر هامش ٢٠.

١٢. (٤١) لأنه عندما تسيطر الشهوة، فإنه لا يوجد مكان لضبط النفس، وفي مملكة المتعة لا يمكن للفضيلة أن تجد موضعًا لقدم على الإطلاق."

ولكي يتمكن (أرخيتاس) من جعل فكرته أكثر وضوحًا، فقد طلب (من مستمعيه) أن يتخيلوا شخصًا تم إثارته بمتع الجسد الحسية إثارة بالغة جدًا، تصل إلى الحد الأقصى الذي يمكنه أن يتمتع بها؛ (وقال) إنه يعتقد أنه لن يكون بمقدور أحد أن يشك أن مثل هذا الرجل سيكون باستطاعته أن يستخدم في أي شأن العقل أو المنطق أو التفكير السديد، وذلك لأنه ظل تحت تأثير الشهوات الحسية لوقت طويل. فليس هناك ما هو مدعاة للاشمئزاز والمقت أكثر من الشهوة، ولو أن شخصًا أطلق لها العنان على نحو أكبر ولمدة أطول فإن نور روحه سيخبو كله. ولقد أخبرني نيارخوس[٩٧]، الذي استضافني في تارنتوم، والذي كان قد أبقى على صداقته مع الشعب الروماني، أنه قد علم من أسلافه أن أرخيتاس قال هذا الكلام (أثناء حديثه) مع جايوس بونتيوس السامني، والد ذاك الرجل الذي هزم القنصلين سبوريوس بوستوميوس وتيتوس فيتوريوس في معركة كاودين فوركس[٩٨]، (كما أخبرني نيارخوس) أنه أثناء هذا الحديث، كان حاضرًا أفلاطون الأثيني، الذي اكتشفت أنه كان قد قدم إلى تارنتوم إبان قنصلية لوكيوس كاميلّوس وأبيوس كلاوديوس[٩٩].

١٢. (٤٢) ما الغرض من هذا الحديث؟ لكي يتبين لكما أنه إن لم نستطع أن ننظر بعين الازدراء للشهوة الحسية بالاستعانة بالمنطق والحكمة، فإنه ينبغي علينا أن

---

[٩٧] نيارخوس Νέαρχος من تارنتوم كان من الذين ناصروا الرومان طوال الحرب البونية الثانية، وظل مخلصًا لهم رغم ارتداد الكثيرين من مدينته. كانت تربطه صداقة حميمة بكاتو الرقيب، الذي حل عليه ضيفًا بعد استعادة الرومان لمدينة تارنتوم عام ٢٠٩ ق.م. على يد فابيوس ماكسيموس، وقد تعلم كاتو منه التعاليم الأساسية للفلسفة الفيثاغورية: انظر (Plut. Cat. Maj. 2; Cic. de Sen. 12.).

[٩٨] هو جايوس بونتيوس هيرينوس، والد جايوس بونتيوس تيليسينوس الذي هزم الرومان في معركة كاودين فوركس أثناء الحرب السامنية الثانية عام ٣٢١ ق.م.

[٩٩] كان ذلك عام ٣٤٩ ق.م. عندما كان أفلاطون يبلغ من العمر ٧٩ عامًا، حيث يُعتقد أنه قد زار إيطاليا.

نشعر بالامتنان العظيم للشيخوخة، التي تتسبب في جعلنا لا نرغب في الشيء الذي لا ينبغي علينا فعله. لأن الشهوة الحسية تعيق قدرتنا على الحكم، فهي عدو للتفكير المنطقي، وطبقًا لما سوف أقوله، إنها تغشي عيون العقل، وليس بينها وبين الفضيلة أية قناة اتصال.

لقد قمت وأنا كاره بفصل لوكيوس فلامينينوس[١٠٠] من عضوية مجلس الشيوخ، وقد كان عضوًا بالمجلس لمدة سبع سنوات، وهو شقيق تيتوس فلامينينوس[١٠١]، ذلك الرجل بالغ الشجاعة، لكني رأيت أن مجونه ينبغي أن يصمه بالعار. إذ إنه أثناء عمله كقنصل على بلاد الغال قام أثناء وليمة بإعدام أحد المساجين بالبلطة استجابة لطلب خليلته، وكان من بين المحكوم عليهم بالإعدام. وقد أفلت هذا الرجل من العقاب أثناء تقلد شقيقه تيتوس منصب الرقيب، حيث كان يشغل هذه الوظيفة قبلي مباشرة، لكنني وزميلي فلاكوس[١٠٢] لم نستطع أن نصمت عن هذا السلوك المخزي جدًا وتلك الشهوة المشينة جدًا، التي ألحقت بشخصه الخزي كما جلبت العار للدولة.

١٣. (٤٣) كثيرًا ما سمعت ممن هم أكبر مني سنًا أنهم يقولون إنهم عندما كانوا صبيان كانوا قد سمعوا بدورهم من الشيوخ أن جايوس فابريكيوس[١٠٣] قد اعتاد أن يبدى دهشته من تلك القصة التي سمعها عندما كان مبعوثًا إلى الملك بيرهوس من

---

[١٠٠] قنصل عام ١٩٢ ق.م.، وقد استعار شيشرون قصة اتهام كاتو للوكيوس من كاتب الحوليات القديم فاليريوس أنتياس.

[١٠١] انظر هامش ٢.

[١٠٢] هو لوكيوس فاليريوس فلاكوس، صديق عمر كاتو، وكان زميله في القنصلية وفي وظيفة الرقيب، وكان يدعم قرارات كاتو على الدوام.

[١٠٣] انظر هامش ٤٦.

كينياس[١٠٤] من ثيساليا (تلك القصة التي تقول) إنه كان يوجد ثمة رجل في أثينا يُلقِّب نفسه بالحكيم، وكان هذا الرجل يقول إن كل الأشياء التي نفعلها ينبغي أن تُقاس بقدر ما تحققه لنا من متعة.[١٠٥] وعندما سمع مانّيوس كوريوس وتيبريوس كورونكيانوس[١٠٦] ذلك منه (أي فابريكيوس) اعتادا أن يعبرا عن أمنيتهما أن يتبنى الشعب السامني وبيرهوس نفسه هذا الرأي، من أجل أن يكون بالإمكان هزيمتهم على نحو أيسر، عندما يسلمون أنفسهم للمتع الحسية. هذا وقد عاش مانّيوس كوريوس كصديق حميم لبوبليوس ديكيوس، الذي ضحى بحياته من أجل الوطن أثناء قنصليته الرابعة[١٠٧]، وذلك قبل أن يصبح كوريوس قنصل بخمس سنوات؛ وكان فابريكيوس وكورونكيانوس أيضًا يعرفانه، فهما قد اقتنعا تمام الاقتناع من تجربتهما الشخصية في الحياة ومن عمل ديكيوس البطولي أن هناك ثمة غاية جميلة ونبيلة يجب السعي ورائها من أجلها نفسها، وينبغي أن ينشدها كل رجل صالح وهي ازدراء الشهوات واحتقارها.

١٣. (٤٤) لماذا إذن أذكر الكثير جدًا عن المتع الحسية؟ لأن الشيخوخة لا تظهر ميلًا شديدًا نحو المتع الحسية، وذلك لا يعد نقيصة فحسب، بل إنه مدعاة للثناء البالغ للشيخوخة. فهي تخلو من الولائم والموائد المكدسة وأقداح الخمر المتكررة. كما تخلو أيضًا من السُكْر والتخمة والسهر. لكن لو كان هناك أي تجاوب ينبغي منحه للمتع الحسية، حيث إنه ليس من السهل علينا مقاومة إغراءاتها، فهذا

---

١٠٤ كينياس المبعوث الرسمي للملك بيرهوس ووزيره. كان تلميذًا للخطيب المشهور ديموستينيس، وهو نفسه كان خطيبًا مفوهًا، وقد كلفه بيرهوس بالتفاوض مع الرومان من أجل إقرار السلام.

١٠٥ يقصد هنا الفيلسوف أبيقور (٣٤٢ – ٢٧٠ ق.م.)، وهنا يسخر منه شيشرون لأنه أطلق على نفسه لقب الحكيم، وكان ينبغي أن يترك للناس الحكم عليه بالحكمة.

١٠٦ انظر هامش ٤٧ و ٤٨.

١٠٧ حدث ذلك أثناء الحرب السامنية عام ٢٩٥ ق.م.

أفلاطون الملهم من الآلهة يطلق على المتع الحسية "طُعم الأشرار"[١٠٨]، لأن البشر يقعون في شراكها كما يقع السمك، وعلى الرغم من أن الشيخوخة تخلو من الولائم الفارهة، فإن بإمكانها، على أية حال، الاستمتاع بالموائد المتواضعة. عندما كنت صبيًا، كثيرًا ما كنت أرى جايوس دوليليوس[١٠٩]، نجل ماركوس، الذي كان أول من أحرز انتصارًا بحريًا على القرطاجيين، عائدًا من حفلات عشاء وكان حينها شيخًا؛ لقد كان يشعر بالسعادة (أثناء عودته) بصحبة حامل المصباح وعازف الناي، ولم يكن أي مواطن عادي قد اتخذ لنفسه هذا السلوك من قبله، لكن مجده فقط كان يعطيه هذا الحق.

١٣. (٤٥) لكن لماذا أتحدث عن الآخرين؟ دعوني الآن أعود للحديث عن نفسي. بداية كان كنت عضوًا دائم في أحد المنتديات – هذا (كما تعلمان) أن المنتديات قد تم تأسيسها أثناء تقلدي لمنصب المسئول المالي (الكوايستور) وذلك تكريمًا لدخول العبادة الإيدية للأم العظمى (في روما)[١١٠] _ وعلى ذلك فقد اعتدت تناول العشاء مع رفاق المنتدى بطريقة متواضعة تمامًا، ولكن كان هناك ثمة حماس (يلائمني) في سن الشباب؛ إلا أنه مع تقدمي في السن بمرور الأيام صار كل شيء أكثر وهنًا. والحق إني لم أكن أقيس استمتاعي في هذه الولائم بمقياس الشهوة الحسية، بل بالأحرى بتجمع الأصدقاء وتجاذب أطراف الحديث معهم. ولقد أحسن أسلافنا عند إطلاقهم على تجمع الأصدقاء في الولائم وهم متكئين مصطلح (convivium) أي "التعايش سويًا" وذلك لأنه يعبر عن التواصل الاجتماعي في الحياة، وهو اسم أفضل كثيرًا من ذلك الذي يخص اليونانيين، الذين يطلقون على مثل تلك المناسبة تارة اسم (compotatio / συμπόσιον) أي "المشاركة في الشراب"، وتارة أخرى اسم (concenatio / σύνδειπνον) أي المشاركة في الطعام، وهم بذلك يعظمون

---

١٠٨. κακοῦ δέλεαρ, Timaeus, 69D.

١٠٩ قنصل عام ٢٦٠ ق.م.

١١٠ تم نقل تمثال الربة كيبيلي، التي يُطلق عليها لقب الأم العظمى، من معبدها فوق جبل إيدا بفريجيا إلى روما عام ٢٠٤ ق.م.

الحدث الأقل أهمية (أي الطعام والشراب) على حساب الأهم في هذه المناسبات (أي تجمع الأصدقاء وحديثهم).

١٤. (٤٦) وبالنسبة لي، فإنه بسبب استمتاعي بتجاذب أطراف الحديث (مع الأصدقاء)، فإنني أستمتع بالولائم التي تبدأ (مبكرًا) في وقت الظهيرة، ليس فقط مع من هم في نفس سني، الذين لم يبق منهم إلى الآن سوى القليل، بل أيضًا مع من في نفس عمركما ومعكما أنتما أيضًا؛ وإنني أشعر بالامتنان البالغ للشيخوخة، التي زادت من رغبتي في الحديث (مع الأصدقاء)، وقللت من رغبتي في الشراب والطعام. لكن إذا كانت تلك الأشياء تبهج شخص ما، ولكي لا أبدو أنني أعلن الحرب على كل ضروب المتع الحسية، التي ربما يكون بعضها من متطلبات الطبيعة، فإنني إذن لم أكن أفهم أن الشيخوخة لا تخلو من اهتمامها بهذه المتع ذاتها. والحق إنه لتبهجني العادات التي أرساها أسلافنا بتخصيص مشرفين (على الولائم)، وذلك الخطاب الذي يلقيه، طبقًا لعادة السلف، الجالس على رأس المائدة (حول قواعد الشراب) وعند تقديم الأقداح، تمامًا مثل ما ورد في محاورة "المأدبة" لإكسينوفون، فإنه تبهجني الأقداح صغيرة الحجم الممتلئة بقطرات تشبه قطرات الندى وباردة في الصيف، ومن ناحية أخرى دافئة في الشتاء بفعل أشعة الشمس أو نار المدفأة. وحتى وسط السابين اعتدت أن أحضر يوميًا وأن أشارك جيراني هذه التجمعات حيث يمكننا أن نتجاذب أطراف الحديث في شتى الأمور طيلة الليل.

١٤. (٤٧) لكن لا توجد لدى الشيوخ هذا الفوران الهائل للشهوات الحسية. بل أعتقد أنهم لا يتلهفون إليها؛ فالمرء لا يشعر بالضجر من فقد شيء لا تصبو إليه نفسه. لقد كان رد سوفوكليس موفقًا، وقد بلغ من الكبر عتيًا، عندما سأله رجل عما إذا كان لا يزال يستمتع بالعلاقات الجنسية، حيث قال: " لقد أحسنت الآلهة بي صنعًا إذ جعلتني أفر منها مثلما يفر (العبد) من سيد فظ وقاسي. لأنه بالنسبة لهؤلاء الذين يرغبون بشدة في هذه الأشياء ربما يمثل لهم الحرمان منها أمرًا كريهًا ومزعجًا، أما من شبعوا وأتخموا منها فإن الحرمان منها يعد أكثر امتاعًا لهم من

الانغماس فيها؛ فمن لا يرغب في امتلاك شيء، لا يعد محرومًا منه؛ وعلى ذلك فإنني أوكد أن انعدام الرغبة أمر أكثر تقبلًا.

١٤. (٤٨) لكن إذا كان سن الشباب يستمتع بهذه المتع ذاتها بسعادة أكبر (من الشيوخ)، فطبقًا لما قلت، فإنه أولًا يستمتع بأشياء جد تافهة، وثانيًا إن سن الشيخوخة لا يخلو من تلك المتع تمامًا، رغم أنها لا تحصل عليها بوفرة، فمثلما يستمتع على نحو أكبر بفن توربيو أمبيفيوس[١١١] ذلك المشاهد الذي يجلس في المقعد الأمامي، فإن من يشاهد من المقعد الأخير يستمتع أيضًا، فكذلك الحال فإن سن الشباب ربما يسعد أكثر بسبب رؤيته للمتع من مكان قريب، في حين أن سن الشيخوخة يسعد أيضًا وهو يشاهدها من مكانه البعيد، ويحصل على ما يكفيه بنفس القدر.

١٤. (٤٩) لكن يا له من أمر عظيم أن تعود النفس أدراجها إلى نفسها، أو كما يقولون تعيش مع نفسها، وكأنها قد سددت ما عليها تجاه الشهوة والطموح والصراع والعداوات وكل الرغبات. والحق إنه إذا امتلكت (النفس) قدر مما نطلق عليه غذاء الدراسة والعلم، فلن يكون هناك ما هو أمتع من الشيخوخة المستمعة بوقت فراغها. لقد كنت أرى، يا سكيبيو، كم كان صديق والدك الحميم جايوس جالّوس[١١٢] مشغولًا بوضع خرائط على نحو وثيق للسماء والأرض. فكثيرًا ما كان ضوء النهار يسطع عليه وهو يرسم خريطة بدأ فيها في المساء، وكثيرًا ما حل عليه الليل وهو يقوم بعمل بدأه في الصباح. وكم كانت سعادته غامرة وهو يتنبأ لنا بكسوف الشمس وخسوف القمر.

---

[١١١] توربيو أمبيفيوس هو الممثل الأكثر شهرةً في عصره، وقد كان معاصرًا لترينتيوس، وكان يحصل على الأدوار الرئيسية في بعض مسرحياته.

[١١٢] قنصل عام ١٥٧ ق.م.، وقد اشتهر باهتمامه بدراسة الفلك، وهو أول من تنبأ بحدوث كسوف للشمس قبل معركة بيدنا، انظر: Liv. 44, 37.

١٤. (٥٠) وماذا عن هؤلاء (الذين يقضون شيخوختهم) في دراسات أكثر سهولة، ولكنها مع ذلك تتطلب براعة؟ كم كان نايفيوس[١١٣] سعيدًا أثناء كتابته لملحمة الحرب البونية، وكم كانت سعادة بلاوتوس وهو يكتب مسرحية " تروكولنتوس" (المشاكس) ومسرحية بسيودولوس (المخادع) [١١٤]! ولقد رأيت أيضًا ليفيوس (أندرونيكوس)[١١٥] الذي أخرج مسرحية عندما كان شيخًا، وذلك قبل مولدي بست سنوات، إبان قنصلية كلًا من كينتو وتوديتانوس[١١٦]، وقد ظل على قيد الحياة إلى أن بلغت أنا سن الشباب.

وماذا أقول عن شغف بوبليوس ليكينيوس كراسوس بدراسة القانون الكهنوتي والقانون المدني[١١٧]، أو عن بوبليوس سكيبيو[١١٨] هذا، الذي تم انتخابه ككاهن أعظم منذ أيام قليلة؟ وقد رأيت كل هؤلاء الرجال الذين ذكرتهم وهم شيوخ يتقدون حماسًا نحو هذه الدراسات. وماركوس كيثيجوس[١١٩] أيضًا، الذي أطلق عليه إنّيوس عن جدارة "خلاصة فن الإقناع"، فقد اعتدت أن أراه وهو شيخ أثناه تدربه

---

[١١٣] انظر هامش ٥٣.

[١١٤] بلاوتوس (٢٥٤ – ١٨٤ ق.م.) هو أشهر شعراء الكوميديا الرومان، ويُنسب إليه ٢١ مسرحية من بينهما مسرحية تروكولنتوس ومسرحية بسيودولوس وهما يحملان أسماء للعبيد التي تحرك أحداث المسرحية، كما أن اسم العبد يكشف طبيعة شخصيته.

[١١٥] ليفيوس أندرونيكوس (٢٨٥ – ٢٠٤ ق.م.) هو إغريقي الأصل من سكان تارنتوم بجنوب إيطاليا، وقد أسره ليفيوس سالیناتور وصار عبدًا له، إلا أن الأخير أعتقه، ولهذا حمل اسم سيده. يعد ليفيوس أول أديب روماني، وقد قام بترجمة أوديسية هوميروس إلى اللاتينية في الوزن الساتورني، كما ترجم الكثير من التراجيديات الإغريقية.

[١١٦] قنصلا عام ٢٤٠ ق.م.

[١١٧] انظر هامش ٧٦.

[١١٨] المقصود هنا بوبليوس كورنيليوس سكيبيو ناسيكا كوركولوم (٢٠٦ – ١٤١ ق.م.) قنصل عام ١٦٢ و ١٥٥ ورقيب عام ١٥٩ والكاهن الأعظم عام ١٥٠ ورئيس مجلس الشيوخ عام ١٤٧.

[١١٩] قنصل عام ٢٠٤ ق.م.

بحماس بالغ على فن الحديث! وعلى ذلك، هل يمكن لمتع الولائم والألعاب والمواخير أن تُقارن بمثل هذه المتع؟ والحق أن متع (هؤلاء الحكماء) كانت الشغف للتعلم، (تلك المتع) التي تنمو بمرور العمر لدى الحكماء والمثقفين على حدٍ سواء، ولهذا فإن ثمة حقيقة فيما قاله سولون في أحد أبيات شعره، وكنت قد اقتبستها منه قبلًا، أنه كلما تقدم في العمر كان يتعلم الكثير كل يوم، وبالطبع لا شيء بإمكانه أن يكون أعظم من متعة العقل.

١٥. (٥١) والآن أعرج إلى مباهج المزارعين، التي أجد فيها متعة لا يمكن وصفها، والتي لا تعوقها الشيخوخة أبدًا، وتبدو لي أنها الأقرب من حياة الحكيم. لأن (تلك المباهج) لديها حسابًا مصرفيًا مع الأرض، التي لا ترفض أبدًا السحب منها، كما أنها لا ترد ما تلقته من إيداع إلا وهو مصحوبًا بالفائدة، ويكون الربح في بعض الأحيان قليلًا، ولكنه في أغلب الأحوال يكون كبيرًا؛ ومع ذلك فإن الثمار لا تبهجني وحدها حقًا، بل إن قوة الأرض ذاتها وطبيعتها تبهجني أيضًا. فهي تتلقى البذرة التي يتم إلقاؤها في حضنها الرقيق والمحروث، ففي البداية تضم البذرة وتخفيها عن الأنظار بالمعول، الذي من اسمه تشتق كلمة حرث الأرض بالمعول اسمها؛ ومن ثم، فإنه بعد أن تشعر البذرة بالدفء بفضل حرارة (الأرض) وحضنها، فإنها تجعلها تتمدد وينبت منها عود أخضر، الذي بعون من جذره الليفي ينمو تدريجيًا إلى أن يقف منتصبًا على ساقه ذي العقد، ولكونه لا يزال صغيرًا فإنه يحيط نفسه بأغلفة، وكأنه يحمي نفسه؛ وعندما تنمو الحبة من تلك الأغلفة تخرج الثمرة في صورة منظمة على هيئة صف من سنابل القمح، التي تحمي نفسها بغلاف من الشواشي ضد نقرات الطيور الصغيرة.

١٥. (٥٢) لماذا أتناول بالذكر أصل أشجار الكروم وزراعته ونموه؟ فإنني لا يمكنني أن أشبع من هذه المتعة، فلعلكم تعرفون سبب شعوري بالراحة والبهجة في شيخوختي. وسوف أتجاوز الحديث عن تلك القوة الكامنة لكل الأشياء التي تنبت من الأرض، تلك القوة التي تنتج جذوع ضخمة وأفنان من بذرة تين ضئيلة الحجم، ومن بذرة عنب، أو من البذور المتناهية الصغر لسائر الفاكهة والنباتات؛ ألا يتسبب

غرس البراعم والشتلات والفروع الصغيرة والأغصان الصغيرة في شعور إنسان ما بالسعادة والإعجاب. والحق أن شجرة الكروم التي بطبيعتها تسقط وتتمدد على الأرض إن لم يتم دعمها بدعامة، وبذلك تتمكن من رفع نفسها بتعريشاتها التي تشبه الأيادي وتحضن أي دعامة تدعمها، وتمنع مهارة المزارعين تلك الأفعى (أي شجرة الكروم) من الزحف في أماكن عديدة ومن الانتشار على غير هدى، وذلك بتقليمها بالفأس، كي لا تتوحش مثل أشجار الغابة بفروعها الكثيفة وتنتشر بعيدًا في كل اتجاه.

١٥. (٥٣) وعلى ذلك، ومع قدوم فصل الربيع فإنه في تلك (الفروع) التي بقيت (بعد تقليمها) ينبت في عقد الأغصان الصغيرة ذلك البرعم الذي نطلق عليه اسم الجوهرة، والذي يخرج منه عنقود العنب، الذي ينمو بفعل رطوبة الأرض وحرارة الشمس، ويكون في البداية مر المذاق، وبعد ذلك يصير حلوًا بعد نضجه، ولأنه يتدثر بأوراق العنب فإنه لا يفتقر إلى الحرارة المعتدلة، ويحمي بها نفسه من أشعة الشمس الشديدة. وعليه ماذا يمكن أن يكون أكثر بهجة من ثمار العنب، وأكثر منها جمالًا للرؤية؟

والحق إن ما يجلب البهجة، كما سبق أن قلت، ليس فقط الفائدة من هذه الشجرة، بل أيضًا عملية زراعتها وطبيعتها الخاصة: أعواد الدعامات الموضوعة في صفوف منتظمة، وربط رؤوسها (بشرائط)، وربط شجيرات الكروم وتوجيهها لتتمدد، وتقليم بعض الفروع، كما سبق أن أشرنا، وترك البعض الآخر لتنمو.

ولماذا أتناول بالذكر الري، والعزق المتكرر للتربة، اللذين من خلالهما تصير الأرض أكثر خصوبة بكثير؟ ولماذا أتحدث عن الفائدة من تسميد الأرض؟ فقد تناولت هذه الموضوعات في كتابي الذي ألفته عن الشئون الزراعية.

١٥. (٥٤) حول هذا الموضوع لم يكتب هسيودوس المثقف ولا كلمة، رغم أنه كتب عن زراعة الحقول[١٢٠]. في حين أن هوميروس الذي، كما يبدو لي، كان يعيش

[١٢٠] يشير إلى قصيدة "الأعمال والأيام" التي تناول فيها هسيودوس موضوعات تتعلق بالزراعة.

قبله بأجيالٍ عديدة، قدم لائيرتيس وهو يحاول التخفيف من الحزن الذي استحوذ عليه لغياب ابنه، وذلك بزراعة حقله وتسميده[١٢١]. إن الشئون الريفية مبهجة، ليس فقط فيما يتعلق بحقول القمح والمروج وحقول العنب والأراضي المزروعة بالأشجار، بل أيضًا فيما يتعلق بالحدائق والبساتين وتربية الماشية وأسراب النحل وتنوع كل الزهور. لا تجلب أعمال الزراعة وحدها السعادة، بل أيضًا تطعيم النباتات، التي لم يتم ابتكار أي شيء في الزراعة يحتاج إلى مهارة أكثر منها.

١٦. (٥٥) بمقدوري أن أسترسل في الحديث عن مباهج الزراعة العديدة، إلا أنني أشعر أن الأشياء التي ذكرتها بالفعل كانت جد طويلة. على أية حال، التمسا لي العذر، لأنني واصلت الحديث بسبب حماسي للشئون الريفية، كما أن طبيعة الشيخوخة تتسم بأنها ثرثارة، ولكيلا أبدو بأنني أعفيها من كل عيوبها. وعلى ذلك، فإن مانّيوس كوريوس[١٢٢]، بعد أن أحرز النصر على السامنيين والسابين وبيرهوس، قد قضى الفترة الأخيرة من عمره في مثل هذه الحياة؛ والحق إنني بإمعان النظر في منزله الريفي، إذ إنه لم يكن يقع بعيدًا عني، فإنه لا يمكنني الاكتفاء بالإعجاب سواء بزهد هذا الرجل أو بالانضباط الذي يميز عصره.

١٦. (٥٦) عندما أحضر السامنيون كتلة ضحمة من الذهب لكوريوس وكان جالسًا إلى جوار المدفأة، فقابلهم بالرفض، وقال: " لأنه لا يبدو لي أن المجد هو امتلاك

---

[١٢١] يشير شيشرون إلى المشهد المؤثر الذي رسمه هوميروس في الأوديسية حيث يقتل أوديسيوس الخطاب ثم يبحث عن والده المسن فوجده يعمل في البستان ليسري عن نفسه لحزنه على غياب ابنه:
τὸν δ' οἷον πατέρ' εὗρεν ἐϋκτιμένῃ ἐν ἀλωῇ, (Hom. Od. 24.226)

[١٢٢] انظر هامش ٤٧.

الذهب، بل أن أحكم هؤلاء الذين يملكون الذهب".[١٢٣] ألا تستطيع مثل هذه الروح السامية أن تقضي شيخوخة هنية؟

لكن، كي لا أبتعد بعيدًا عن موضوعي، فإنني أعود إلى الحديث عن الفلاحين. في ذلك الأوان كان أعضاء الشيوخ، الذين يشير لقبهم إلى كونهم شيوخًا، يقطنون في مزارعهم؛ إن كانت الرواية حقيقية، فإنه قد تم إبلاغ لوكيوس كوينكتيوس كينكينّاتوس[١٢٤] وهو يحرث أرضه بأنه قد تم انتخابه كديكتاتور، وبأمر من هذا الديكتاتور قام قائد سلاح الفرسان جايوس سرفيليوس أهالا[١٢٥] بألقاء القبض على سبوريوس مايليوس[١٢٦] وتنفيذ حكم الإعدام فيه لسعيه إلى عودة الحكم الملكي. فمن المنزل الريفي كان يتم استدعاء كوريوس وغيره من الشيوخ الآخرين للحضور إلى مجلس الشيوخ، ولهذا السبب كانوا يطلقون على الأشخاص الذين يقومون باستدعائهم اسم " المسافرون" (viatores). وعلى ذلك هل يمكن لهؤلاء الرجال

---

[١٢٣] يروي بلوتارخوس رواية مختلفة، حيث يقول إن السفراء السامنيين عندما ذهبوا إلى كوريوس وجدوه يطهو طعام الغداء المكون من بعض الخضروات، فقام كوريوس بطردهم وهو يقول إن الرجل الذي يتناول مثل هذا الغداء لا يحتاج إلى الذهب. Plut. Cat. 2

[١٢٤] قيل إن لوكيوس كوينكتيوس كينكينّاتوس قد تم تعيينه كديكتاتور من قبل مجلس الشيوخ مرتين، المرة الأولى عام ٤٥٨ ق.م. عندما أنقذ الجيش الروماني المحاصر من قبل الأيكويين، وقد نجح في إنهاء الحرب بعد ستة عشر يومًا من تعيينه؛ والمرة الثانية عام ٤٣٩ ق.م.، وكان حينها قد بلغ سن الثمانيين، عندما قُتل ماينيوس. وقد أشار شيشرون إلى حصوله على الديكتاتورية مرة واحدة فقط. وقصته وهو يحرث أرضه وردت أيضًا عند المؤرخ ليفيوس: Livy 3, 26.

[١٢٥] قائد الفرسان عام ٤٣٩ ق.م.

[١٢٦] هو ثري من العامة، وقد حدثت مجاعة عام ٤٣٩ ق.م. فقام بإحضار كم ضخم من القمح وباعه للعامة بسعر زهيد، فاتهمه بعض النبلاء أنه يدخر السلاح في منزله ويعقد في منزله اجتماعات سرية ليغير نظام الحكم ويعود بالرومان إلى الحكم الفردي. وبناءً على هذا الاتهام طُلب من مايليوس أن يمثل أمام كينكينّاتوس لكنه رفض المثول أمامه، فأمر كينكينّاتوس من أهالا أن يقتله، وبعد مصرعه صودرت ممتلكاته.

الذين استمتعوا بزراعة حقولهم أن تكون شيخوختهم بائسة؟ والحق إنه من وجهة نظري لا أعرف أية حياة يمكنها أن تكون أسعد من حياة الفلاح، ليس فقط من حيث طبيعة مهامه، لأن زراعة الأرض مفيدة للجنس البشري كله، بل أيضًا بسبب البهجة التي سبق أن أشرت إليها، وكذلك بسبب إنها توفر فيض ووفرة لكل الأشياء التي تبقي على حياة البشر، بل ويستلزم وجودها لعبادة الآلهة، وحيث إن بعض الناس يرغبون في هذه المتع المادية، فإنني أعاود حديثي عنها لعلي أشعر بالامتنان من هذه المتعة. لأن مخازن النبيذ والزيت للسيد المقتصد والمجتهد دائمًا ممتلئة، وكذلك الحال بالنسبة لمستودعه، ومنزله الريفي برمته يتسم بالثراء، فهو يمتلأ بلحم الخنزير والماعز والضأن والدجاج واللبن والجبن والعسل. وهناك أيضًا الحديقة التي يطلق عليها الفلاحون أنفسهم اسم " المخزن الثاني للحم المقدد ". هذا كما أن صيد الطيور وصيد الحيوانات في أوقات الفراغ يقدمان تلك الوجبات الشهية جدًا.

١٦. (٥٧) لماذا أقول المزيد عن اخضرار المروج أو صفوف الأشجار أو جمال بساتين الكروم أو الزيتون؟ سوف أكون موجزًا. لا شيء يمكن أن يكون أكثر سخاءً من حيث المنفعة وأكثر جاذبية للعين من الحقل المزروع بعناية، (الحقل) الذي لا تعوق الشيخوخة الاستمتاع به فحسب، بل إنها تدعو وتحث على الاستمتاع به. لأنه في أي مكان آخر يمكن لذلك السن أن ينعم بشكل أفضل بالدفء سواء من أشعة الشمس أو من المدفأة (في الشتاء)، أو على العكس من ذلك (في الصيف) ينعش نفسه على نحو جد صحي بالظلال أو بالمياه الجارية؟

١٦. (٥٨) وعلى ذلك دع (الشباب يستمتعون) بامتلاك الأسلحة، والجياد، والرماح، والهراوة، ومباريات الكرة، وسباقات العدو. ومن وسائل اللهو العديدة فلتتركوا لنا نحن معشر الشيوخ النرد والمكعبات؛ وليجردنا من يشاء من هذا الشيء ذاته، حيث إن الشيخوخة يمكنها أن تكون سعيدة بدون هذه الأشياء.

١٧. (٥٩) إن كتب إكسينوفون[١٢٧] مفيدة جدًا في أمور شتى، وأناشدكم أن تقرأوها بحماس، وهو ما تفعلونه بالفعل. ويا لها من فصاحة مُدحت بها الزراعة بواسطته في أحد مؤلفاته[١٢٨]، الذي يتناول إدارة ممتلكات الأسرة، والذي يحمل عنوان Oeconomicus "الضليع في إدارة شئون البيت". وكما هو واضح لكم فإنه لا يوجد شيء، كما يبدو له، جد خليق بالملوك أكثر من الاهتمام بزراعة الأرض، في هذا العمل يتحدث سقراط مع كريتوبولوس (وقص عليه هذه القصة): قورش الأصغر[١٢٩]، ملك الفرس، وكان مشهورًا بالذكاء الشديد وبعظمة سلطانه، عندما أتى إليه في سارديس[١٣٠] ليساندروس الإسبرطي[١٣١]، وهو رجل غاية في الاحترام، وكان يحمل إليه هدايا من الحلفاء، وبالتالي فقد حظي ليساندروس بكرم الوفادة المعتاد، وذلك لشخصه ولكونه ضيفًا، ومن بين أمور الترحيب الأخرى أنه جعله يرى حديقة محاطة بأسوار ومزروعة بعناية فائقة. وبعد أن أبدى ليساندروس إعجابه بارتفاع الأشجار، ووضعها في صفوف يتكون كل صف منها من خمس أشجار، وإعجابه بالأرض المحروثة بعناية والنظيفة، وبالروائح الذكية التي تنبعث من الزهور، عندئذ قال له إنه يبدي إعجابه ليس فقط بالجهد المبذول في الحديقة، بل أيضًا ببراعة ذلك الرجل الذي بواسطته تم تخطيط وتنسيق هذه الأرض. أجابه

---

[١٢٧] انظر هامش ٨١.

[١٢٨] Xen. Oecon. 4. 20

[١٢٩] قورش الأصغر هو ابن داريوس الثاني، وهو أمير من الأسرة الأرخمينية وقائد عسكري، وقد حكم ليديا وأيونيا من ٤٠٨ إلى ٤٠١ ق.م.؛ وقد لقي مصرعه في معركة حربية أثناء محاولته الفاشلة في خلع أخيه الأكبر أرتاكسركسيس من عرش المملكة الفارسية وذلك عام ٤٠١ ق.م. ويذكر أن شيشرون أطلق عليه لقب "الملك الفارسي" ولكنه كان في حقيقة الأمر أمير فقط.

[١٣٠] هي عاصمة ليديا التي كان يحكمها قورش الأصغر، كما سبق أن ذكرنا في الهامش السابق.

[١٣١] ليساندروس Λύσανδρος هو قائد عسكري وزعيم سياسي إسبرطي، وقد نجح عام ٤٠٥ ق.م. في تدمير الأسطول الأثيني أثناء الحروب البليبونيسية مما دفع أثينا إلى الاستسلام وإنهاء الحرب، وقد توفي عام ٣٩٥ ق.م.

قورش قائلًا: " أنا الذي قام بتخطيط كل هذه الأشياء، فتقسيم الأشجار في صفوف من صنعي، وهذا التنسيق من صنعي، بل إن الكثير من تلك الأشجار قد غرستها بيدي". عندئذ فإن ليساندروس وهو ينظر إلى ثوب (قورش) الأرجواني وإلى رشاقة جسده وإلى ملابسه الفارسية المرصعة بالكثير من الذهب والكثير من الأحجار الكريمة قال: "إنه لمن الصواب حقًا، يا قورش، أن يقول الناس إنك سعيد، حيث إنك تجمع بين الحظ السعيد والخلق الفضيل!"

١٧. (٦٠) وعلى ذلك، يحق لنا معشر الشيوخ أن نستمتع بهذا الحظ السعيد، كما أن المرحلة العمرية لا تمنعنا من مواصلة اهتمامنا بشتى الشئون الأخرى، وبزراعة الأرض، على وجه الخصوص، ونحافظ عليها حتى آخر لحظة من الشيخوخة. فعلى سبيل المثال، نعرف أن ماركوس فاليريوس كورفينوس[١٣٢] قد عاش إلى أن بلغ مئة عام، حيث إنه أمضى بالفعل هذه المرحلة من العمر وسط الحقول، وقام بزراعتها، وقد فصل بين حصوله على القنصلية للمرة الأولى وللمرة السادسة ست وأربعون عامًا. وهكذا فإن فترة حصوله على المناصب السياسية كبيرة جدًا وهي تعادل المدة الزمنية التي يعدها أجدادنا بداية سن الشيخوخة؛ وكانت الفترة الأخيرة من عمره أكثر سعادة من الفترة الوسطى، وذلك لأن سلطته الروحية تزداد، في حين يقل ما يقوم به من عمل.

١٧. (٦١) لكن السلطة الروحية تعد بمثابة التاج (على جبين) الشيخوخة. كم كانت (سلطة) لوكيوس كايكيليوس ميتيلّوس[١٣٣] هائلة، وكم كانت هائلة لدى

---

١٣٢ ماركوس فاليريوس هو قائد عسكري روماني، وفي شبابه (٣٤٩ ق.م.) دخل في نزال فردي مع قائد غالي أمام الجيشين الروماني والغالي، وبعد انتصاره بمساعده غراب أطلق عليه الرومان لقب كورفينوس نسبة إلى الغراب corvus . حصل على القنصلية للمرة الأولى عام ٣٤٨ ق.م. وللمرة الأخيرة عام ٢٩٩ ق.م.؛ وهو الجد الأكبر لميسالا القائد العسكري وصاحب الصالون الأدبي في عصر أغسطس والراعي الأدبي للشاعر تيبولّوس.

١٣٣ انظر هامش ٨٢.

أولوس أتيليوس كالاتينوس[١٣٤]! الذي من أجله كُتب ذلك النقش (على شاهد قبره):

" تتفق الغالبية العظمى من العشائر على اعتبار هذا الرجل
أنه كان الرجل الأول في قومه."

والنص الكامل للنقش معروف لأنه منقوش على (شاهد) قبره. وعلى ذلك كان الرجل عن جدارة له وزنه، إذ ترجع شهرته إلى اتفاق الجميع على مدحه. كم كان الرجل الذي رأيته عظيمًا، إنه الكاهن الأعظم بوبليوس كراسّوس[١٣٥]، وكم كان عظيمًا ماركوس لبيدوس[١٣٦]، الذي خلفه في ذات المنصب الديني! وماذا أقول عن باولوس[١٣٧] أو أفريكانوس أو عن ماكسيموس[١٣٨]، الذي سبق أن تحدثت عنه؟ كان لهؤلاء الرجال سلطة روحية، ليس في حديثهم فحسب، بل أيضًا في إيماءاتهم. (وهكذا) فإن الشيخوخة، وخاصة التي تُوجت بالحصول على المناصب العامة، تمتلك سلطة روحية هائلة جدًا لدرجة تجعلها تفوق كل متع سن الشباب مجتمعة.

١٨. (٦٢) لكن تذكرا أنني على مدار حديثي كله أمدح الشيخوخة، التي وضع أساسها جيدًا في سن الشباب. ومن ثم يمكن أن نخلص إلى تلك الحكمة التي قلتها ذات مرة وحظيت باستحسان الجميع: يا لها من شيخوخة بائسة، تلك التي تحتاج إلى الدفاع عن نفسها بالكلمات. ليس بمقدور الشعر الأبيض أو التجاعيد أن يجلبا الوقار فجأة، بل إن المرء الذي يعيش سنوات عمره الأولى على نحو يتسم بالنبل، يجني ثمار الوقار في سنوات عمره الأخيرة.

---

[١٣٤] قنصل عام ٢٥٨ و ٢٥٤ ق.م. ، وديكتاتور عام ٢٤٩ و ٢٤٧ ق.م.، وكان شيشرون يعده ضمن أبطال روما القدامى مثل كوريوس وفابريكيوس (Planc. 60) . وكان قبره على طريق أبيوس خارج جبانة روما "بورتا كابينا" ، وهي على مقربة من مقابر آل سكيبيو.

[١٣٥] انظر هامش ٧٦.

[١٣٦] الكاهن الأعظم من عام ١٨٠ ق.م. وقنصل عام ١٨٧ و ١٧٥ ق.م.

[١٣٧] لوكيوس أيميليوس باولوس، انظر هامش ٤٤.

[١٣٨] كوينتوس ماكسيموس، انظر هامش ٢٠.

١٨. (٦٣) لأن هذه الأشياء ذاتها هي إمارات الوقار، رغم أنها قد تبدو بسيطة وتافهة: أن تحظى بتحية الصباح (من الأتباع)، وأن يطلبوا لقاءك، وأن يفسحوا الطريق لك، وأن يقف الناس لك عند قدومك، ومرافقتك عند ذهابك (إلى السوق العامة) أو عند عودتك، وأن يطلبوا مشورتك، وسوف يتم مراعاة تلك العادات في مجتمعنا وفي الدول الأخرى بحرص بالغ جدًا، طالما أنها تنطوي على مكارم الأخلاق. يقول الناس إن ليساندروس الإسبرطي[١٣٩]، الذي سبق أن تحدثت عنه من قبل، اعتاد أن يقول إن إسبرطة هي المكان الأكثر توقيرًا لكبار السن. لأنه لا يوجد في أي مكان آخر مراعاة للسن بهذا المستوى الهائل، ولا تحظى الشيخوخة في أي مكان آخر بتوقير أكبر. ولم لا، فهناك قصة تحكي أنه أثناء العروض المسرحية في أثينا، أتى رجل مسن إلى المسرح، ولم يقدم أحد من مواطني بلدته مكانًا له وسط الزحام الشديد للجمهور، ولكنه عندما اقترب من (مقاعد) الإسبرطيين، التي كانت قد خصصت لهم لكونهم سفراء بلدتهم، يُقال إن جميعهم وقفوا من أجله، ودعوا الشيخ للجلوس.

١٨. (٦٤) عندما صفق لهم جميع الحضور تصفيقًا حارًا، قال واحد منهم: " الأثيني يعرف ما هو السلوك القويم، ولكنه لا يرغب في فعله."

هناك العديد من العادات في مجلسنا (مجلس العرافين)، وأسوق (إليكما) واحدة، على وجه الخصوص، تتعلق بموضوعنا، وهي إعطاء الأسبقية في الحديث حسب السن، وهكذا فإن للأكبر الحق في قول رأيه أولًا، فالعرافون الأكبر سنًا لهم الأسبقية ليس فقط على من هم أعلى في المنصب، بل أيضًا على من يمتلكون سلطة "الإمبريوم"[١٤٠]. وعلى ذلك، ما هي ملذات الجسد التي يمكن أن تُقارن بامتيازات هذه السلطة الروحية؟ هناك من استخدموا تلك الامتيازات بشكل رائع، وهؤلاء يبدون

---

[١٣٩] انظر هامش ١٣١.

[١٤٠] يمتلك سلطة الإمبريوم القنصل والحاكم القضائي وحكام الولايات، وبمقتضى هذه السلطة يمكنه قيادة الجيوش الرومانية.

لي بأنهم قد أدوا دورهم في دراما الحياة حتى نهايته، وليس مثل الممثلين غير المدربين الذين ينهارون في المشهد الأخير.

١٨. (٦٥) لكن (قد يقول البعض) إن كبار السن يتسمون بالعبوس والقلق والمزاج الحاد وصعوبة المراس. وإذا سألنا عنهم، سنجدهم أيضًا بخلاء. ولكن هذه عيوب في الشخصية، وليست عيوب في مرحلة الشيخوخة. ومع ذلك فإن العبوس والعيوب الأخرى التي ذكرتها، قد نلتمس لها بعض الأعذار، ولكنه لا يصل إلى حد تبريرها، بل جعلها تبدو بأنه من الممكن قبولها: فكبار السن يتصورون أنفسهم مدعاة للتجاهل والاحتقار والسخرية منهم؛ علاوة على ذلك، فإن مع ضعف بنيانهم يكون أي شاق عليهم بغيضًا لنفوسهم؛ على أية حال، فإن تلك العيوب تصبح مقبولة أكثر من خلال امتلاك شخصية ذات سلوك قويم ومستنيرة. وهذا الأمر يمكن أن نراه سواء في الحياة الواقعية أو على خشبة المسرح، وهو ما نستشفه من هذين الأخوين في مسرحية "الأخوان" (Adelphi)[١٤١]. كم كانت لأحدهما شخصية كريهة، وللآخر شخصية لطيفة! فكان الأمر على هذا النحو! فمثلما أنه ليست كل خمر تفسد بمرور الزمن، فكذلك لا تفسد كل شخصية بتقدمها في العمر. فأنا أتقبل شيء من الصرامة في الشيخوخة، طالما وُجِدَت باعتدال، مثل أي شيء آخر: أما القسوة فلا أتقبلها بأي حالٍ من الأحوال: وبالنسبة إلى الطمع عند كبار السن، فلا أفهم ما الهدف منه.

١٨. (٦٦) لأنه هل يمكن أن يكون هناك شيء أكثر سخافة من السعي وراء المزيد من حقائب السفر، في حين أنه لم يتبق من الرحلة سوى أقل القليل.

١٩. بقي أن نتحدث عن السبب الرابع (لكراهية الشيخوخة)، السبب الذي يبدو بأنه يصيب من هم في نفس سني على وجه الخصوص بالضيق والهم، إنه الاقتراب من

[١٤١] مسرحية "الأخوان" من تأليف ترنتيوس، وقصتها تدور حول الأخوين ميكيو وديميا، وهما مختلفان في الطباع؛ ديميا رجل جلف يعيش في الريف، أما ميكيو فشخص لطيف ويميل إلى صخب الحياة ويعيش في أثينا.

الموت، الذي هو بالقطع ليس ببعيد عن سن الشيخوخة. أيها المسن التعس، الذي لم يدرك من رحلة عمره بالغة الطول أن الموت شيء يجب احتقاره! فالموت إما أنه يجب عدم المبالاة به تمامًا، لو كان يطفئ جذوة الروح تمامًا، وإما أن يكون مرغوبًا فيه، وذلك لو كان يقود (الروح) إلى حيث ستعيش حياة خالدة. وبالطبع لا يمكننا أن نجد أي احتمال ثالث.

١٩. (٦٧) لماذا، إذن، ينبغي عليَّ أن أخاف، إذا كنت بعد الموت سأصبح غير شقي، أو سأصبح سعيدًا؟ ومع ذلك من ذا الذي يتسم بهذا القدر من الحماقة، حتى لو كان شابًا، بحيث يكون على يقين من بقائه على قيد الحياة حتى المساء؟ فحتى ذلك العمر (الشباب) لديه أسباب للموت أكثر بكثير ممن هم في نفس عمري. فالشباب يقعون فريسة للأمراض بسهولة أكبر؛ ويكون مرضهم أكثر خطورة؛ ويتم علاجهم بصعوبة أكبر. وبالتالي يبلغ عدد قليل منهم سن الشيخوخة. فلو أن ذلك الأمر لم يحدث (أي موت الشباب)، لصار (بمقدورنا) أن نعيش على نحو أفضل وأكثر حكمة. ولأن العقل والحكمة والرشد من سمات الشيوخ، فلولا وجودهم، لم يكن لأي دولة أن تقوم لها قائمة على الإطلاق. ولكن أعود إلى الحديث عن الموت وشيك الحدوث. فلماذا نوجه ذلك الاتهام لسن الشيخوخة، في حين أنه، كما تريان، يشترك فيه سن الشباب على حدٍ سواء؟

١٩. (٦٨) ولقد أدركت بنفسي أن الموت شائعٌ في جميع المراحل العمرية، عند (موت) ابني الغالي، وكذلك أنت، يا سكيبيو، عند موت أخويك اللذان كانا مُتوقع لهما (أن يبلغا) أرفع المناصب (في الدولة). لكن الشاب يحدوه الأمل في أن يعيش لفترة طويلة، أما الشيخ فليس بمقدوره أن يأمل في الشيء ذاته. فمثل هذا الأمل يفتقر إلى الحكمة؛ فهل هناك ما هو أكثر حماقة من امتلاك الأشياء غير المؤكدة بدلًا من المؤكدة، وامتلاك الزائف بدلًا من الحقيقي؟ (ربما يقول البعض) إن الشيخ ليس لديه حتى ما يأمل فيه. لكنه في الواقع في وضع أفضل من الشاب، لأن الأول (الشيخ) قد حصل بالفعل على ما يأمل فيه الأخير (الشاب)؛ فالأخير يتمنى أن يعيش أمدًا طويلًا، في حين أن الأول قد عاش هذا الأمد الطويل بالفعل.

١٩. (٦٩) ومع ذلك، ما الذي يطول أمده في طبيعة الإنسان، أيتها الآلهة الطيبة؟ امنحي أطول عمر ممكن؛ دعينا نبلغ العمر الذي عاشه ملك تارتيسوس[١٤٢]، فطبقًا لما رأيته مكتوبًا، كان هناك ثمة رجل بجاديس[١٤٣] يُدعى أرجانثونيوس[١٤٤]، وقد حكم ذلك الرجل لمدة ثمانين عامًا، وعاش إلى أن بلغ مئة وعشرين عامًا؛ ولكن بالنسبة لي فإن لا شيء يبدو لي طويل الأمد بحق، طالما أن له نهاية؛ لأنه عندما تحل تلك النهاية، فإن كل ما سبق يصبح من الماضي؛ وسوف يبقى فقط ما كسبته يداك من فضيلة ومن أعمال صالحة. والحق، إن الساعات والأيام والشهور والسنين تمضي، والزمن الماضي لا يعود أبدًا، ولا يمكن معرفة ما هو آتٍ في المستقبل. وينبغي على المرء أن يرضى بما كُتب له من العمر أن يعيشه.

١٩. (٧٠) فالممثل، على سبيل المثال، لكي يمتع الجمهور، لا يحتاج إلى الظهور في كل المشاهد حتى المشهد الأخير، فيكفيه أن يكون محل استحسان الجمهور في المشاهد التي مثلها؛ وعلى ذلك فإنه ليس من الضروري على الحكماء أن يظلوا على هذه الخشبة الفانية حتى إسدال الستار في النهاية. فإن كانت فترة العمر قصيرة، فهي تعد طويلة بما فيه الكفاية لكي تعيش حياة حسنة وشريفة؛ أما إذا قُدر لك أن تعيش حياة أطول، فليس هناك ما يدعو إلى الحزن على نحو أكبر من حزن الفلاحين، عندما ينصرم فصل الربيع المبهج ويقبل عليهم الصيف والخريف. لأن الربيع يجسد لهم الشباب، ويظهر الفاكهة التي سوف تثمر؛ أما باقي الفصول فدورها هو حصاد المحاصيل وتخزينها في أماكن مناسبة.

١٩. (٧١) أما ثمرة الشيخوخة، كما قلت كثيرًا، فتتمثل في تذكر النعم الوفيرة التي سبق الحصول عليها. على أية حال، فإن كل شيء يحدث وفقًا للطبيعة، يجب أن نعده من النعم. فما الذي يمكن أن يكون متناغمًا مع الطبيعة أكثر من موت كبار

---

[١٤٢] كل الساحل الجنوبي لإسبانيا كان يُطلق عليه اسم تارتيسوس.

[١٤٣] جاديس هي المدينة الرئيسية في منطقة تارتيسوس.

[١٤٤] وردت قصة أرجانثونيوس عند هيرودوت، Herodotus 1, 163 .

السن؟ لكن الشيء نفسه يحدث للشباب، رغم أن الطبيعة تقاوم وتناضل لكيلا يحدث ذلك. وعلى ذلك يبدو الشباب لي بأنهم يموتون تمامًا مثلما تُطفأ نار المشعل القوية بالكثير من الماء، بينما (يبدو موت) الشيوخ لي مثل نار استنفدت طاقتها، فهي تخبو وتخبو عن طيب خاطر دون أي تدخل من قوة خارجية. أو مثل ثمار التفاح، فإذا كانت غير ناضجة عندئذ يصعب انتزاعها من الأشجار، وإذا نضجت واكتمل نموها فإنها تسقط من تلقاء نفسها، وهكذا الحال فإن قوة ما تنتزع الحياة من الشباب بعنف، وينتزع النضج الحياة من الشيوخ؛ فبالنسبة لي حقًا فإن نضج الشيخوخة هذا شيء ممتع جدًا، لدرجة أنني كلما اقتربت من الموت أكثر أصبحت أبدو (كملاح) يرى الأرض بعد رحلة بحرية طويلة وأصبح على وشك أن يدخل الميناء في أي لحظة.

٢٠. (٧٢) ولكن ليس للشيخوخة ثمة حد فاصل بعينه، فيمكن للمرء أن يعيشها على نحوٍ صائب، طالما باستطاعته أن يؤدي مهام وظيفته ويحافظ عليها ولا يعير أي اهتمام للموت، ومن ثم تصبح الشيخوخة أكثر ثقة في النفس وأكثر شجاعة من سن الشباب. وهذا يفسر ما أجاب به سولون على الطاغية بيسيستراتوس[١٤٥]، عندما سأله الأخير عن الشيء الذي يعتمد عليه في معارضته إياه بمثل هذه الجرأة البالغة، وقد قيل إنه رد قائلًا: "على الشيخوخة"." إن أفضل خاتمة للحياة، عندما تكون الطبيعة بنفسها هي التي تقضي بالموت على الكيان الذي صنعته بينما لا يزال يتمتع بعقل راجح وحواس سليمة. تمامًا مثل من يقوم بصنع سفينة، أو تشييد بناء، فإن باستطاعة ذلك الشخص نفسه (وليس أي شخص آخر) أن يدمر صنعته بكل سهولة، وهكذا فإن الطبيعة نفسها بالمثل هي الأجدر على القضاء على الإنسان الذي خلقته. وهكذا فمن الصعوبة بمكان هدم كيان جديد، لكن ما أسهل أن

[١٤٥] بيسيستراتوس Πεισίστρατος (٦٠٠ – ٥٢٧ ق.م.) طاغية أثينا من عام ٥٦١ ق.م.، وقد روى بلوتارخوس هذه القصة، ولكنه قال إن الحوار دار بين سولون وأحد أصدقاء بيسيستراتوس.

يتداعى القديم. ولذلك لا ينبغي لكبار السن أن يتشبثوا بالأمد الضئيل المتبقي من العمر، كما لا ينبغي لهم أن يهدروه بلا مبرر؛

٢٠. (٧٣) ينهانا فيثاغورس[١٤٦] أن نرحل عن حصن الحياة ونقطة حراستنا إلا بأمر من القائد الأعلى، ألا وهو الرب.[١٤٧] يظهر شاهد قبر سولون أنه حكيم حقًا، وفيه يقول إنه لا يرغب أن يخلو موته من حزن أصدقائه ونحيبهم. فقد كان يرغب، حسب اعتقادي، أن يبدو عزيزًا على ذويه. بيد أني أرى (أن شاهد القبر الذي كتبه) إنّيوس هو بالأحرى أفضل:

ليت لا يكرمني أحد بدموعه، ولا يشارك في

جنازتي بنحيبه.

فهو يعتقد أن الموت، الذي يعقبه الخلود، لا يستدعي النواح من أجله.

٢٠. (٧٤) والآن قد يكون هناك ثمة إحساس (بالألم) عند الموت، وذلك لفترة وجيزة، وخاصةً بالنسبة للمُسن؛ وبعد الموت إما أن يكون هناك إحساس يتمنى المرء أن يحسه أو لا يوجد إحساس على الإطلاق. لكن يجب أن نضع تلك الفكرة (في أذهاننا) منذ شبابنا وذلك لكي لا نبالي بالموت. فبدون تلك الفكرة لا يمكن للمرء أن ينعم براحة البال. لأنه من المؤكد أن كل نفس ذائقة الموت، وليس من المؤكد أهو في هذا اليوم نفسه. وعلى ذلك كيف يمكن للمرء الذي يخشى الموت، الذي يهدده في كل الأوقات، أن ينعم بسكينة النفس؟

٢٠. (٧٥) وفيما يتعلق بهذه النقطة يبدو لي أنها لا تحتاج إلى نقاش بالغ الطول، فإنه يكفيني أن أتذكر لوكيوس بروتوس الذي لقي مصرعه أثناء تحريره لوطنه[١٤٨]،

---

[١٤٦] انظر هامش ٦٣.

[١٤٧] عبارة فيثاغورس هذه وردت عند أفلاطون Plato, Phaedo 61 A-62 C. . وقارن أيضًا نفس المعنى عند شيشرون Tusc. 1, 74; Rep. 6, 15. . وقد تبنى الرواقيون الرأي نفسه بشأن الانتحار.

[١٤٨] لقي لوكيوس بروتوس محرر روما من النظام الملكي مصرعه على يد أرونس ابن الملك المنفي تاركوينيوس سوبربوس، Liv. 2, 6. .

أو (أتذكر) من آل ديكيوس الرجلين، اللذان انطلقا بسرعة بجيادهما نحو الموت عن طيب خاطر[١٤٩]، أو (أتذكر) ماركوس أتيلّيوس الذي رحل (عن وطنه) ليواجه الموت تعذيبًا، وذلك لكي يفي بالعهد الذي قطعه على نفسه لعدوه[١٥٠]، أو (أتذكر) من آل سكيبيو الرجلين، اللذان آثرا التصدي لتقدم القرطاجي ولو بجسديهما[١٥١]، أو (أتذكر) جدك أنت (يا سكيبيو) لوكيوس باولوس[١٥٢]، الذي لقي مصرعه في معركة كانّاي المخزية بسبب تهور زميله[١٥٣]، أو (أتذكر) ماركوس ماركيلّوس[١٥٤]، الذي دفع موته عدوه بالغ القسوة ألا يجعله يعاني الحرمان من جنازة رسمية، أو (أتذكر) فرقنا العسكرية، إذ إنني قد كتبت عنها في عملي التاريخي " الأصول" (Origines) إنها كانت تنطلق إلى الحرب بروح تملؤها السعادة والإقدام إلى ذلك الموقع الذي منه لا يعتقدون أنهم سيعودون منه أبدًا. وبناءً على ذلك فإنه على

---

١٤٩ انظر هامش ١٠٧.

١٥٠ ماركوس أتيليوس ريجولوس قنصل عام ٢٦٧ ق.م.، وقد شارك في الحرب البونية الأولى وأحرز الكثير من الانتصارات إلى أن هزم في تونس ووقع في الأسر عام ٢٥٥ ق.م.. عرض عليه القرطاجيون أن يطلقوا سراحه ويذهب إلى روما من أجل التفاوض حول السلام بين البلدين على أن يتعهد لهم بالعودة إليهم كأسير، وبالفعل سافر إلى روما وعرض على مجلس الشيوخ عرض قرطاجة من أجل السلام، وقد طلب هو من الرومان رفض العرض القرطاجي، وبعد رفض الرومان لهذا العرض عاد إلى قرطاجة ليفي بعهده إليهم، رغم أن الرومان نصحوه ألا يفعل، إلا أنه أصر على احترام عهده، وفي قرطاجة تم تعذيبه حتى الموت.

١٥١ انظر هامش ٧٧.

١٥٢ انظر هامش ٤٤.

١٥٣ المقصود القائد العسكري ماركوس ترنتيوس فارو، ورغم أن الكثير من القادة العسكريين انهزموا أمام هانيبال، لكن أبناء الطبقة الأرستقراطية ربطوا الهزيمة في كانّاي (٢١٦ ق.م.) بهذا القائد وذلك لأنه ينتمي إلى الحزب الديموقراطي.

١٥٤ انتصر ماركيلوس على سيراكوزة عام ٢١٢ ق.م. ، ولكنه وقع في كمين عام ٢٠٨ ق.م. ولقي مصرعه، وقام هانيبال بدفنه وأقام له جنازة عسكرية مهيبة تكريمًا لبراعته كقائد عسكري.

الشيوخ المثقفين ألا يخشون من ذلك الشيء الذي ينظر إليه (الجنود) الشبان بعين الاحتقار، رغم أنهم ليس فقط غير متعلمين، بل إنهم قرويين بسطاء.

٢٠. (٧٦) وبشكل عام، فإنه يبدو لي حقًا أن السأم من كل الاهتمامات هو ما يؤدي إلى السأم من الحياة. هناك ثمة اهتمامات بعينها لمرحلة الصبا؛ وعلى ذلك، هل يرغب الشباب في تلك الاهتمامات؟ كذلك هناك (اهتمامات) أخرى للشباب في مقتبل العمر، فهل يسعى وراء تلك الاهتمامات من بلغوا العمر الذي يُطلق عليه منتصف العمر (الكهولة)؟ فهناك أيضًا (اهتمامات) لهذ المرحلة من العمر: والحق أن اهتمامات (الكهولة) لا ينشدها (من هم) في الشيخوخة. وأخيرًا فإن هناك اهتمامات بعينها لفترة الشيخوخة؛ وعلى ذلك مثلما أن اهتمامات الفترات السابقة كان مصيرها الزوال، كذلك فإن اهتمامات فترة الشيخوخة مصيرها الزوال أيضًا؛ وعندما يحدث هذا، يجلب السأم من الحياة الوقت المناسب للموت.

٢١. (٧٧) وحيث إنني لا أرى لماذا لا ينبغي عليَّ أن أجازف بأن أذكر لكما ما يجول بخاطري بشأن الموت؛ إذ يبدو أنني أمتلك رؤية أوضح عنه كلما دنوت منه. وأعتقد أن أبويكما، يا بوبيليوس سكيبيو وأنت يا جايوس لايليوس- وهما رجلان من ألمع رجال (عصرهما) كما أنهما صديقين عزيزين لي- لا يزالان حيان، فهما يعيشان الحياة الوحيدة التي تستحق بصدق أن تُسمى حياة. لأنه طالما نحن محبوسون في إطار هذا الجسد، فإننا سنظل نقوم بأداء مهمة ما (قد فرضها علينا) القدر، ونتحمل عبئًا ثقيلًا. لأن الروح، في واقع الأمر، ذات أصل سماوي هبطت من مقرها بالغ العلو، وكأنها قد تم إيداعها في الأرض، ذلك المكان الذي يخالف طبيعتها الإلهية وخلودها. ولكني أعتقد أن الآلهة الخالدة قد غرست الأرواح في الأجسام البشرية، وذلك لكي يوجد من يقومون برعاية الأرض، وهناك من يقومون، أثناء تدبرهم للنظام السماوي (للأجرام السماوية)، بمحاكاتها في أسلوب حياتهم بجعلها تتسم بالاعتدال والثبات. ولم يدفعني إلى الوصول لهذا الاعتقاد التفكير المنطقي والنقاش فحسب، ولكن دفعني إليه أيضًا شهرة أعظم الفلاسفة ونفوذهم الروحي (الذين قالوا به).

٢١. (٧٨) كنت أسمع أن فيثاغورس (وتلاميذه) الفيثاغوريين، الذين يمكن اعتبارهم من بني جلدتنا، والذين كان يُطلق عليهم في السابق اسم الفلاسفة الإيطاليين، أنهم لم يساورهم أدنى شك قط في أن الأرواح التي نمتلكها هي من فيض العقل الإلهي للكون. علاوة على ذلك، كان يُلفت انتباهي كثيرًا إلى ما قاله سقراط في اليوم الأخير حياته عن خلود الأرواح، وهو الرجل الذي أطلقت عليه نبوءة أبولّون أنه أكثر الناس حكمة. وعلى ذلك، لماذا أقول المزيد؟ هذا ما أقنعت نفسي به، وهذا ما أعتقد فيه؛ وحيث إن الأرواح تتمتع بمثل هذه السرعة الهائلة في الحركة، وهذا الكم الهائل لذكريات الماضي، والقدرة على التنبؤ بأحداث المستقبل، وتمكنها من العديد من الفنون، والكم الهائل من العلوم، والكثير من الابتكارات، فلا يمكن لمثل تلك الطبيعة، التي تمتلك كل هذه المقومات، أن تكون فانية؛ وحيث إن الروح في حالة نشاط دائم، وليس لديها أي مصدر خارجي للحركة، وذلك لأنها تحرك نفسها بنفسها (ذاتية الحركة)، فإن حركتها حقًا لن يكون لها نهاية، لأنها لن تهجر نفسها بنفسها أبدًا؛ وحيث إن طبيعة الروح من مادة واحدة، ولا تحمل في نفسها أي مزيج غير متجانس أو غير مشابه لطبيعتها، فهي غير قابلة للتجزئة، وإذا كانت غير قابلة للتجزئة، فهي غير قابلة للفناء؛ هناك أيضًا برهان دامغ على أن البشر يعرفون الكثير من الأشياء قبل ولادتهم، لأنهم أثناء تعلمهم للكثير من العلوم الصعبة في صباهم، يستوعبون الكثير من الأشياء التي لا حصر لها بسرعة كبيرة، لدرجة تجعلهم يبدون أنهم لا يستقبلونها للمرة الأولى، بل يستدعونها إلى أذهانهم ويتذكرونها. وهذه هي خلاصة آراء أفلاطون.

٢٢. (٧٩) ومرة أخرى ورد عند إكسينوفون أن قورش الأكبر[١٥٥] وهو على فراش الموت قال هذه الكلمات:

" أيها الأبناء الأعزاء جدًا على نفسي، لا تحسبوا أنني عندما أرحل عنكم، لن يكون لي أي وجود في أي مكان أو أي كيان. لأنني عندما كنت موجودًا بينكم، لم يكن

[١٥٥] انظر هامش ٨٠.

بمقدوركم رؤية روحي، ولكنكم كنت تدركون أنها موجودة في جسدي هذا من تلك الأنشطة التي كنت أقوم بها. فلتعتقدوا إذن أنها هي ذاتها لا تزال موجودة، حتى لو كنتم لا ترونها.

٢٢. (٨٠) في الحقيقة إن أمجاد مشاهير الرجال لن تدوم بعد موتهم، إذا لم تفعل أرواح هؤلاء الرجال ذاتهم أي شيء من أجل أن نحفظ ذكراهم لمدة زمنية أطول. والحق لا يمكن أبدًا أن يقنعني شيء أن الأرواح، التي تكون حية طالما كانت موجودة في الأجساد الفانية، تموت مباشرة عقب مغادرتها إياها؛ كما أنه (لا يمكنني الاعتقاد)، حقًا، أن تصبح الروح عاجزة عن التفكير، عندما تغادر جسدًا ميتًا عاجزًا عن التفكير، بل (على العكس من ذلك) فإنها عندما تتحرر من الاقتران بالجسد تبدأ في أن تصبح طاهرة ونقية، ومن ثم تصير حكيمة. وحتى عندما تتفكك طبيعة الإنسان بسبب الموت، فإنه يبدو واضحًا للعيان إلى أين ترحل عناصر الجسد الأخرى، فكل العناصر المادية تعود إلى المكان الذي أتت منه، لكن الروح وحدها تظل غير مرئية، سواء عندما كانت موجودة أو عندما ترحل.

٢٢. (٨١) ومرة أخرى، كما تريان بحق، فإن لا شيء وثيق الشبه بالموت مثل النوم. على أية حال، فإن أرواح النائمين تظهر بوضوح تام طبيعتها الإلهية؛ وذلك لأنها تتنبأ بالكثير من الأحداث التي ستقع في المستقبل، عندما تصبح بلا قيود وتصير حرة؛ ومن هذا المنطلق يمكننا أن نفهم أي حالٍ ستكون عليه في المستقبل، عندما تتحرر تمامًا من أغلال الجسد. وعلى ذلك، قال (قورش) إن كان هذا الكلام صوابًا، وقروني وكأني إله، أما إذا كانت الروح ستفنى مع الجسد، فإنني، على أية حال، أدعوكم يا من تبجلون الآلهة التي تحمي كل هذا الكون البديع وتحكمه، أن تخلدوا ذكراي بكل بر وولاء."

٢٣. (٨٢) قال قورش هذه الكلمات عندما حضره الموت؛ دعوني أستعرض أنا رأيي، إن كان ذلك يسعدكما.

لن يستطيع أحد أبدًا، يا سكيبيو، أن يقنعني أن والدك باولوس، أو جِدّاك باولوس وأفريكانوس، أو أن والد (جدك) أفريكانوس وعمه، أو أن العديد من الرجال

المشاهير (الآخرين)، الذين ليس من الضرورة حصرهم، كانوا سيحاولون القيام بتلك المآثر العظيمة لكي تنقلها الذاكرة إلى الأجيال القادمة، إذا لم يروا بعقولهم أن الأجيال القادمة سوف تذكرهم. ولكي أشعر بالفخر بنفسي بأي شيء يخصني كما هي عادة كبار السن، فهل تعتقد أنني كنت سأقوم بمثل هذه الأعمال الشاقة بالنهار والليل، داخل أرض الوطن وفي ميدان القتال، لو كنت (أعتقد) أن نهاية شهرتي مقترنة بنهاية حياتي؟ ألم يكن من الأفضل كثيرًا لي أن أمضي وقتي في سكينة وهدوء، بمنأى عن أي كد وإرهاق؟ لكن روحي، ولا أعرف بأي طريقة فعلت ذلك، كانت يقظة على الدوام وكانت تنظر إلى الأجيال القادمة، كما لو كانت (تعتقد) أنها عندما ترحل عن هذه الحياة الدنيا، فإنها في نهاية الأمر سوف تعيش (الحياة الحقيقية). لكن إن لم يكن الأمر على هذا النحو، وهو أن الأرواح بحق خالدة، ما كانت أرواح الصفوة تناضل على وجه الخصوص من أجل تحقيق مجدًا خالدًا.

٢٣. (٨٣) وماذا عن حقيقة أن الرجل الأكثر حكمة يموت برباطة جأش بالغة، في حين أن الأكثر حماقة (يواجه الموت) بهلع شديد، ألا يبدو لكما أن روح الأول (الحكيم)، التي تمتلك رؤية أكثر وضوحًا وتتسم ببعد النظر، ترى أنها سترحل إلى حياة أفضل، في حين أن روح الآخر (الأحمق)، ذات الرؤية الأكثر بلادة، لا ترى ذلك؟ والحق أنني تتملكني رغبة قوية أن أرى والديكما اللذان أوقرهما وأحبهما حبًا جمًا؛ وفي الحقيقة إنني أتوق إلى لقاء ليس فقط هؤلاء الذين أعرفهم بشكل شخصي، بل أيضًا هؤلاء الذين سمعت أو قرأت عنهم أو كتبت عنهم أنا نفسي؛ وعندما أرحل إليهم فمن المؤكد أنه لن يكون من اليسير على أحد أن يعيدني إلى الحياة مرة أخرى، أو أن يعيد طهيي مثل بيلياس[١٥٦]. فلو أن إله ما كان بوسعه أن

[١٥٦] بيلياس Πελίας هو ملك يولكوس، وهو الذي طلب من ابن أخيه ياسون أن يحضر له الفروة الذهبية. وقد جانب شيشرون الصواب حين قال إن ميديا ذبحت بيلياس وطهت لحمه لكي تعيده بسحرها شابًا من جديد، والصواب أنها قد فعلت ذلك مع أيسون الأخ غير الشقيق لبيلياس، وحيث إن أيسون قد عاد شابًا من جديد فقد أقنعت بنات بيلياس أن يذبحن والدهن لكي تعيده شابًا، وعندما قتلت بنات بيلياس والدهن خدعتهن ميديا.

يمنحني العودة من سن الشيخوخة هذا إلى فترة الصبا، أو أن أبكي في المهد، فإنني سوف أرفض بشدة، فإنني حقًا لا أرغب في أن يتم استدعائي إلى مضمار السباق من بدايته بعد أن أوشكت من بلوغ نهايته.

٢٣. (٨٤) لأن ماذا تحتوي الحياة من مميزات؟ أو بالأحرى ما هو الشقاء الذي تخلو منه الحياة؟ لكن بفرض أنها تحتوي بقدر مقبول (على بعض المميزات)، فإنها، مع ذلك، تحتوي بالطبع على لحظة الشبع منها أو الخروج منها. والحق إنني لا يسعدني أن أنتقص من قدر الحياة، وهو ما يفعله غالبًا الكثيرون، وحتى هؤلاء المثقفون، كما أنني لا أشعر بالندم على ما عشته، وحيث إنني قد عشت على هذا النحو، الذي يجعلني أدرك أن مولدي لم يكن بلا جدوى، وإنني أرحل عن الحياة هكذا كما لو كنت أرحل عن فندق، وليس عن منزلي، وذلك لأن الطبيعة منحتنا (الحياة) من أجل إقامة مؤقته، وليس من أجل إقامة دائمة. يا له من يوم رائع، عندما سوف أسافر للالتحاق بذلك الجمع السماوي من الأرواح، وعندما سوف أرحل عن هذا العالم (الذي يسوده) الصراع والدنس! لأنني سوف أرحل للقاء ليس فقط هؤلاء الرجال، الذين سبق أن ذكرتهم من قبل، بل أيضًا للقاء ولدي كاتو، الذي لم يولد أي رجل أفضل منه على الإطلاق، ولا يتفوق عليه أحد في بر الوالدين، وقد تم إحراق جسده بواسطتي أنا نفسي، على الرغم من أنه كان من المناسب أن يحدث العكس وأن يُحرق جسدي بواسطته هو، فإن روحه، التي لا تهجرني، وتنظر دائمًا إلى الخلف، ترحل إلى ذلك المكان الذي تعلم علم اليقين إنه ينبغي عليَّ أن أذهب إليه. كنت أبدو (للناس) أنني قد تحملت مصيبتي هذه برباطة جأش، كلا، فقد تحملتها بنفس غير راضية، بيد أني كنت أعزي نفسي بالاعتقاد في أن الانفصال والفراق بيننا لن يكون لأمد بالغ الطول.

٢٣. (٨٥) لهذه الأسباب، يا سكيبيو، ولأن هذا الأمر، حسب قولكما، اعتاد أن يثير دهشتك أنت ولايليوس، تعتبر شيخوختي خفيفة الوطأة، فهي ليس فقط غير مزعجة، بل أيضًا ممتعة. لكن إن جاوبني الصواب في هذا الرأي، وهو أنني أعتقد أن أرواح البشر خالدة، فإنني سعيد بهذا الاعتقاد الخاطئ، ولا أرغب في التخلي عن

هذا الاعتقاد الخاطئ ما دمت حيًا، فهو يدخل على نفسي السرور. فإن كنت بعد موتي لن أشعر بشيء، حسب اعتقاد بعض الفلاسفة محدودي الفكر[١٥٧]، فإنني لا أخشى من أن يسخر هؤلاء الفلاسفة بعد موتهم من اعتقادي الخاطئ. لكن لو لم يكن مقدر (لأرواحنا) الخلود في المستقبل، فإنه سيكون من المرغوب فيه، مع ذلك، أن تنطفئ جذوة المرء في الوقت المناسب. لأن الطبيعة تضع نهاية للحياة، تمامًا مثل سائر الموجودات الأخرى. على أية حال، فإن الشيخوخة تبدو وكأنها المشهد الأخير من دراما العمر، الذي ينبغي الفرار منه وهو يزداد إرهاقًا، خاصة (وإننا نشعر) أننا قد حصلنا على ما فيه الكفاية.

تلك الأفكار التي ذكرتها كانت كل ما لدي عن الشيخوخة؛ وليتكما تبلغانها، لكي يكون بمقدوركما التحقق من خلال التجربة من تلك الآراء التي سمعتماها مني.

.

[١٥٧] يشير إلى الفلسفة الإبيقورية التي تقول إن الروح تفنى مع الجسد ولا وجود لبعث أو حساب بعد الموت.